مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦/ العدد ٤

تَجلِّيَاتُ الحُبِّ في الشِّعرِ الأَندلسي
ابن زيدون اختيارًا

الباحث: حيدر يحيى مجبل
جامعة البصرة/ كلية الآداب –قسم اللُّغة العربيَّة
pgs.haidar.yahya@uobasrah.edu.iq

إشراف: أ. م. د وليد مزهر انتيش
جامعة البصرة/ كلية الآداب –قسم اللُّغة العربيَّة
waleed.mizher@uobasrah.edu.iq

الكلمات المفتاحية: ابن زيدون، ولَّادة، التَّجربة، الحبَّ، الأَندلس.

كيفية اقتباس البحث
مجبل، حيدر يحيى ، وليد مزهر انتيش، تَجلِّيَاتُ الحُبِّ في الشِّعرِ الأَندلسي ابن زيدون اختيارًا ،مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، نيسان ٢٠٢٦، المجلد:١٦ ،العدد:٤ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

"Manifestations of Love in Andalusian Poetry: A Study of Ibn Zaydun"

Haidar Yahya Mejbel
University of Basrah

Waleed Mizher Intaish
University of Basrah

Keywords : Ibn Zaydun, Wallada, personal experience, love, al-Andalus.

How To Cite This Article
Mejbel, Haidar Yahya, Waleed Mizher Intaish, "Manifestations of Love in Andalusian Poetry: A Study of Ibn Zaydun",Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, april 2026,Volume:16,Issue 4.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

***Abstract*:**

This study explores a central theme in the poetry of Ibn Zaydun: the profound impact of his personal emotional experience on his poetic output. His unstable and intense love affair with Wallada bint al-Mustakfi left a noticeable imprint on the themes and moods of his poetry, reflecting the shifting phases of their relationship. The research examines the emotional journey that shaped this poetic voice, identifying the key stages of the experience and analyzing the reasons behind its fluctuations. Each stage—whether marked by joy, anxiety, or sorrow—gave rise to distinct poetic expressions, making his poetry a mirror of his emotional life. The study positions Ibn Zaydun's love experience as a foundational element in the evolution of his poetry. It delves into the interaction between the poet's internal world and the external context, highlighting how his environment and personal circumstances influenced the tone and content of his work. The research also emphasizes how the poet's deep emotional involvement did not reduce the artistic quality of his work. On the contrary, it enriched his poetry with a wide emotional spectrum and thematic diversity. His love poems, in particular, stand out as vivid

records of his personal experience, infused with artistic finesse rather than mere sentimentality. The poet's journey is traced through three main stages: union, separation, and remembrance. Each stage inspired different poetic tones—romantic longing during union, complaint and reproach during separation, and nostalgia in the final stage, often expressed through yearning, regret, and sorrow. Ultimately, the study concludes that love was a dominant force in Ibn Zaydun's poetry, shaping not only its themes but also its artistic excellence.

ملخص البحث:

يدرسُ هذا البحثُ، ظاهرةً مركزيَّةً في نتاجِ ابن زيدون الشِّعرِي، وهي تأثيرُ تجرِبتِه الذَّاتيَّة على ذلك النِّتاج، فقد عاشَ الشَّاعِرُ تجربةً عاطفيَّةً غيرَ مُستقرَّةٍ مع محبوبته ولَّادة بنت المُستكفي، وهذا ما أَدَّى إلى تباينٍ فيما كتبهُ من أَغراضٍ؛ عطفًا على أَثرِ الحالة الَّتي كانَتْ عليها العَلاقةُ. وحاولَ البحثُ أَنْ يَصفَ تلك الحالات، التَّي مرَّت بها هذه التَّجرِبة، والوقوف على أَسبابها وعِللها، ومن ثَمَّ تحليلها، حتَّى تجلَّتْ بأَغراضٍ، هي بنتُ تلك الحالات، من سعادةٍ وقلقٍ وأَلمٍ، إِذِ التَّباينُ فيها؛ هو المصداقُ الحقيقيُّ لكُلِّ حالةٍ عاشها مع محبوبتِه.

لقد كانَ البحثُ محاولةً في دراسةِ ما تجلَّت تجربة ابن زيدون في الحُبِّ؛ بوصفها مرَّجعيَّةً في تشكُّلِ شِعرِهِ، واجتهدَ في البحثِ عن العَلاقةِ بين الشِّعرِ والتَّجارب الذَّاتيَّة، وموقع الذَّات بينهما، فكانَ أَهمّ ما قدَّمهُ البحثُ هو الرَّبط بين السِّيَاق الخارجي وصناعة الشِّعر، وعمليَّة التَّأثر والتَّأثير بين الشَّاعر ومُحيطه الخارجي في نظمِ قصائده، فضلًا عن بعضِ النَّتائجِ الَّتي كانت مبنيَّةً على فهمِ الذَّاتِ للتَّجربة نفسِها، وكيف تعاملَت مع مراحلها، الَّتي رافقتها المُعاناةُ، فجعلتهَا تارةً تنكسر، وتارةً تسعى جاهدةً لبناء نفسها، وهي تجربة غنيَّةٌ بالأَحداث والتَّقلُّبات.

إنَّ تجربة الحُبِّ مرَّت بثلاثِ مراحل (الوصل، الهجر، والذِّكرى)، وكُلُّ مرحلةٍ أَنتَجَتْ أَنماطًا مُختلفةً في مضامين الشِّعر؛ تبعًا لنوع المرحلة: النَّسيبُ في المرحلة الأُولى، والشَّكوى والعِتاب والهجاء في الثَّانية، أَمَّا الثَّالثة فتجلَّتْ بالحَنين الَّذي انبثق منه: الاشتياق، الحسرة، والبُكاء.

وبرهنَ البحثُ على أَنَّ تجربة ابن زيدون في الحُبِّ كانَتْ مُهيمنةً على شعره، هذه الهيمنةُ جعلَتْ شِعرَهُ في الحب يكاد أَنْ يكون وثيقةً لهذه التَّجربة؛ مُعبِّرًا عنها، بكُلِّ تفاصيلها، إِذْ لم يتركْ شاردةً إِلَّا وقيَّدَها في شِعرِه. على الرَّغمِ من هذه الهيمنة، فإِنَّ شِعرَهُ لم ينجرف لأَنْ يكونَ سطحيًّا، بل كانَ ذا جودةٍ عاليةٍ؛ فنيًّا وبلاغيًّا، بل كانت سببًا في تنوع الموضوعات الَّتي نظمَ فيها.

شكَّلَ الشِّعرُ الأَندلسيُّ رُكنًا أَساسيًّا في تكوينِ الشِّعر العربيّ، وقَدْ مثَّلَ إِرثًا حضَاريًّا في الثَّقافةِ العربيَّة، إِذْ تميَّزَ بهُويَّتِه المكانيَّة؛ الَّتي أَنتجَتْ أَشكالًا جديدةً في الشِّعر العربيّ، وحَفِظَ الشِّعرُ فيه أَماكنَ أَرَّخَ فيها لنفسِهِ، على الرَّغمِ مِن أَنَّ الشِّعرَ الأَندلسيَّ تأَثَّرَ بنظيرِه المَشرقيّ بظُهورِ التَّيَّارِ المُجدِّدِ فيه، معَ ابتكارِ الأَندلسيِّين أَنماطًا سُجِّلَت باسمهم، إِلَّا أَنَّ ذِكْرَ الأَماكِنِ في طيَّاتِهُ؛ جعلهُ يحتفظ بهُويَّتِهِ الأَندلسيَّة حتَّى مع مَن حاكى الشِّعر العربيَّ القديم؛ بالحفاظِ على عمودِه، ومِن هؤلاء الَّذِينَ حافظوا عليه، الشَّاعر الوزير، ابن زيدون.

تُعَدُّ العَلاقَةُ بَينَ ابْنِ زيدون وَوَلَّادةَ بنتِ المُستكفي، مِن أَشْهرِ قِصَصِ الحُبِّ وضوحًا وشُهرةً، في تَاريخِ الأَدَبِ العَربِيّ، وأَكْثرِها تَعقيدًا. الوُضُوحُ والشُّهرةُ في عَلانِيَةِ هذا الحُبِّ مُنذُ بِدايتِهِ، وما أَنتجَاهُ مِن قَصائِدَ، ذَاعَ صِيتُها، على طُولِ تِلكَ العَلاقَةِ. أَمَّا التَّعقيدُ فَلِأَنَّها –أَي العَلاقة– وُلِدَتْ بِظُرُوفٍ، كَانَتِ الْأَندلسُ فِيهَا، تَمرُّ بمرحلةٍ مُضطربةٍ وانتقاليَّةٍ، على الصَّعيدِ السِّياسي والاجتماعي، حَيْثُ الغُموضُ، والمُستقبلُ الَّذِي تَشْرَئِبُّ لـه أَعناقُ أَهلِه؛ لمعرفةِ إِلامَ سَيَؤُولُ مَصيرُهم؟، بَعدَ سُقوطِ الدَّولةِ الأمويَّة، وقيام دويلات ملوك الطَّوائف، ومحلُّ التَّعقيد في ذلك؛ يَكْمُنُ في البُعدِ السِّياسي الَّذِي ينتميان إِليه، فولَّادةُ هي ابنةُ الحُكْمِ الأُمويّ، وابنُ زيدون؛ كان وزيرًا الَّتِي حَكمتْ قرطبةَ، بَعدَ سُقوطِ الدَّولةِ الأُمويَّةِ، وكذلك التَّعقيد في مُجرياتِ هذهِ العَلاقةِ، وما خَالطَها من مَدٍّ وجَزرٍ، للأَسبابِ الَّتِي سيقفُ البَحثُ عليها في حينِهِ.

ترجمة الشَّاعر (نَسَبًا ومَكانةً):

ذَكَرَ ابنَ زيدون، كَثيرٌ مِمَّن تصدَّى للكِتابةِ، سَواءٌ أَكانَ مِن مُؤلِّفي عَصرِهِ، أَمْ من الَّذينَ جَاؤُوا بعدَهُ، فقدْ غَصَّتْ مُؤلَّفاتُهم بنَقلِ أَخبارِه؛ من نَسَبٍ، وسِيرةٍ، وشِعرٍ، وغيرِ ذلك، وباخْتلافِ تَصانيفِهم، من تَراجِمَ، وتاريخٍ، وأَدبٍ، وغيرِهِنَّ. أَمَّا من الذينَ عاصروه؛ فتِلميذُ ابْنِ حَزْمٍ (٤٥٦ هـ)؛ أَبو عبد الله مُحمَّد بن أَبي نصر فتوح الأزدي، المُلقَّب بالحُمَيديّ (٤٨٨ هـ)، ذَكَرَهُ بقولِهِ: "أدركنا زمانه وأنشدنا له غيرُ واحد من أهل المغرب"[١]، وفي تَرجمتِهِ، قالَ: هو "أحمد بن عبد الله بن زيدون أبو الوليد من أهل قرطبة"[٢]. وأَمَّا من الذين جَاؤُوا بعدَهُ فَكُثُرٌ، مِنهُم؛ الفَتحُ بنُ خاقان (٥٢٩ هـ) قالَ: بأَنَّهُ "زعيمُ الفئةِ القرطبيةِ، ونشأةُ الدولةِ الجَهْوريةِ[٣]، الذي بَهَرَ بنظامِهِ، وظهر كالبدرِ ليلةَ تمامِهِ، فجاء من القولِ بسحرٍ، وقلَّدَهُ أبهى نحرٍ ..."[٤]. وفي تَرجمتِهِ أَيضًا، قالَ الذَّهبيُّ: هو "الصاحبُ، الوزير، العلَّامة، أبو الوليد، أحمدُ بنُ عبد الله ابن أحمد بن غالب بن زيدون المَخزوميُّ، القُرشي، الأندلسي، القرطبي"[٥]. فابنُ زيدون لم يكُنْ مَغمورًا في قُرطبةَ؛ بل كانَ معروفًا بحسَبِهِ ونسَبِهِ، فقدْ "كان أبو الوليد من أبناء وجوهِ الفقهاءِ بقرطبةَ في أيام الجماعةِ والفتنة"[٦]، حتَّى أَنَّ أَباه عبدَ اللهِ، قد تَرجمَ له ابنُ بشكوال بقولِهِ: هو "عَبْدُ الله بن أحمد بن غالب

بن زيْدُون المخزُومي من أهل قرطبة ... وكان من أهل النباهة والجلالة والمعرفة باللغة والأدب، وشُوور بقرطبة. وتوفي بالبيرة سنة خمس وأربعمائة، وسيق إلى قرطبة، فدُفن بها ... وكان مولده سنة أربع وخمسين وثلثمائة"[٧]، فهو "وزير وكاتب وشاعر من أهم ما قدمته الأندلس"[٨].

ما التَّجَلِّيَاتُ؟

جَاءَ في العَين "تقول جَلا اللهُ عنك المَرَض، أي: كشفه. وجَلّيْت عن الزَّمان، وعن الشّيء، إذا كانَ مَدفوناً فأظهرته"[٩].

أَمَّا في لِسَانِ العرب فـ"جلّى الشيءَ أَي كشفه. وهو يُجلِّي عن نفسه أَي يعبر عن ضميره. وتَجَلَّى الشيءُ أي تكشَّف."[١٠]، وقِيلَ: "التجلِّي في الصقر أَن يغمض عينه ثم يفتحها ليكون أبصر له، فالتَّجَلِّي هو النظر"[١١].

وقَالَ الجرجاني "التَّجَلّي: هو ما يَنْكشف للقلوب من أنوارِ الغُيُوب، إنّما جمع الغيوب باعتبار تعدُّد موارد التَّجَلِّي، فإن لكل اسم إلهي بحسب حَيْطته وَوُجُوهِهِ تَجَلِّيات مُتَنَوِّعةً"[١٢].

وجَاءَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَالنهَّارِ إِذَا تَجَلَّى﴾[١٣] أي "ظهر وانكشف بضوء الشمس."[١٤]

فَالتَّجَلِّي هُوَ ما يَظهرُ ويُكشَفُ عَمَّا كان في مَكنونِ الشَّيْءِ؛ كَتَعبيرٍ عن حَقيقةِ حَالِهِ.

وتَأسِيسًا على هذا، معَ الأَخْذِ بالحُسْبانِ أَنَّ "كلّ عملٍ فنّي نَواتُه حَدثٌ، أو أحداث تتفق أو تختلف في معانيها وفي أزمنة حدوثها"[١٥]، هذهِ النَّواةُ بِوصفِها مَرْجِعًا لإنتَاجِ الشَّاعرِ عَملهُ الشِّعري، أَمَّا الأحداثُ فَهِيَ؛ تِلكَ المَرَاحِلُ التي عَاشَها في تَجرِبَتِهِ معَ ولَّادةَ، والَّتِي كانَتْ "أعظم الأحداث أثراً في حياة ابن زيدون وفي أدبه"[١٦] وهِيَ ثَلاثَةٌ: (الوَصْلُ، والهَجْرُ، واليَأسُ أَوِ الذِّكْرَى)[١٧]، وكانَ لَهَا اليَدُ الطُّولَى بكَيفيَّةِ الإنتَاجِ، مِنْ تَبدُّلِ الأغرَاضِ؛ تَبعًا للدَّورِ الَّذِي فِيهِ، وأَمَّا زَمانُ الحُدوثِ؛ فَطُولُهُ وقِصَرُهُ، كانَ لهُمَا القِدْحُ المُعَلَّى بالكَمِّ المُنتَجِ. و"تجربة العشق العنيفة غنية في كل شيء، ممتلئة بالأحاسيس والمشاعر وبكل ما تريده النفس وتشتهيه، وعميقة في تغلغلها إلى خفايا الروح لتهزها وتثيرها وتوترها كما لم يحدث لها في سابق عهدها قط."[١٨]، وكلُّ مرحلةٍ تجلَّتْ بما يُناسبها، كما سيتَّضِحُ فيما يأتِي:

أولًا: الوَصل:

إِنَّ نَبضَ العِشقِ يكونُ بالوَصْلِ بَينَ العَاشِقِيْنَ، وقَدْ وصَفَهُ ابنُ حزمٍ بأَنَّهُ "حظٌ رفيعٌ، ومرتبةٌ سريّة، ودرجةٌ عاليةٌ، وسعدٌ طالِع، بل هو الحياة المجدّدة، والعيش السَّنِيّ، والسرور الدائم، ورحمة من الله عظيمة، ولولا أن الدنيا دار مَمَرٍّ ومحنة وكَدَر، والجنة دار جزاء وأمان من المكارِه، لقلنا إنَّ وصْلَ المحبوب هو الصَّفاءُ الذي لا كَدَر فيه، والفرح الذي لا شائبة فيه ولا حُزنَ معه، وكمالُ الأماني، ومنتهى الأراجي."[١٩][٢٠]، كُلُّ هذهِ الصِّفاتِ التي أَلصَقَهَا بالوَصْلِ، ليسَتْ حِكرًا على فَهمِهِ لَهُ، بَلْ

هِيَ حَالةٌ إنسانيَّةٌ يُقِرُّهَا الجَميعُ، ولِذَلِكَ فلا اخْتلافَ فِيهَا بين لَبِيْبَيْنِ، وما عَساه أَنْ يتَجَلَّى مِنْ ذَلكَ، غَيْرُ شِعرِ النَّسيبِ(٢١) بالمَحبوبَةِ، وما يُضفي على الوَصلِ طَلاوَةً؛ مُبادَرتُها هِيَ، بِطَلَبِ الوَصلِ فِي حَدِيثِ البِدَايَاتِ، فتَجَلَّى الوَصْلُ بقولِه [من السَّريع]:

"وَشادِنٍ أَسْأَلُهُ قَهْوَةً ... فَجَادَ بالقَهْوَةِ وَالوَرْدِ
فَبِتُّ أُسْقَى الرّاحَ مِنْ رِيقِهِ، ... وَأَجْتَني الوَرْدَ مِنَ الخَدّ"(٢٢)

الوَصلُ يُوجِبُ الهَنَاءَةَ عَلى المُحِبِّ، فيَخرُجُ عَبَقُهَا مُكَلَّلًا بأَنواعِ الوُرودِ، للتَّعبيرِ عنهُ، وذا حالُ هذَينِ البيتَينِ، اللَّذَيْنِ يَصِفُ فِيهِما؛ عَبَقَ ليلةٍ قضيَاهَا مَعًا، واللَّيلة؛ كزمنٍ يَضمُّ كُلَّ ما يَنضَوي في مَدارِه؛ الحَبيبَينِ وما يَتَشارَكَانه، فبدأ في وصفِهَا؛ بالشَّادنِ، وهذه استعارةٌ قد عرفَها الشِّعرُ العَربيُّ القَديمُ، والشَّادِنُ "هو ولد الظبي"(٢٣)؛ للتَّعبيرِ عَنِ جَمالِ جِسمِ المَرأَةِ ورشاقتِهِ، والاستِعارةُ هُنا تَصريحيَّةٌ فَقَدْ "ذكر في الكلام لفظ المشبه به فقط"(٢٤)، وقد سألَ المحبوبةَ القهوةَ، أي "الخمر"(٢٥)، كاستعارةٍ عن ريقِهَا، فَمِن كَرَمِها أَنَّها جادَتْ عليه بالقَهوةِ والوَردِ، والوَردُ أيضًا استعارةٌ عن حُمرةِ خدَّيهَا، فَالبَيْتُ الأَوَّلُ مَبنيٌّ على الاستعاراتِ، وقرائن ذلك؛ البيت الثَّاني، يصفُ حالَهُ؛ إذْ بِه يُسقى الخَمرَ من ريقِها ويَقتطفُ الوَردَ من خَدِّها. ومثل هذه الاستعاراتِ، ووصفِ المَحبوبةِ بالمُجملِ؛ حَفلَتْ به دواوينُ الشُّعراءِ قَديمًا؛ ذلك لِأَنَّ الوَصلَ يُمثِّلُ مَرحلةَ السَّعادةِ المُستمرَّةِ، ولذلكَ، فالكِتَابةُ فِيهَا تَقتصرُ على الوَصْفِ، والحِكَايَةِ، سَوَاءٌ أَكَانَ حَقِيقِيًّا أَمْ مُبَالغًا فِيهِ مِن بَناتِ الخَيالِ؛ وطَلَبِ الاسْتِزَادةِ مِن السَّعادَةِ، وفِي الإِطَارِ نَفسِه قالَ [من الكامل]:

"أَهْدي إلَيَّ بَقِيَّةَ المِسْوَاكِ ... لا تُظْهِري بُخْلاً بِعُودِ أَراكِ
فَلَعَلَّ نفسي، أن يُنَفَّسَ ساعَةً ... عَنْها، بِتَقْبيلِ المُقَبِّلِ فاكِ
يا كَوْكَباً بَارى سَناهُ سَناءَهُ، ... تُزهى القُصورُ بِهِ عَلى الأَفلاكِ
قَرَّت وَفازَت بِالخَطيرِ مِنَ المُنى، ... عَيْنٌ تُقَلِّبُ لَحْظَها، فَتَراكِ"(٢٦)

لم يخرجْ مِن ثَوبِ ما اتَّفَقَ عَليهِ الشُّعراءُ القُدَامَى فِي النَّسِيبِ، ولا سيَّما بذِكرهِم (المِسواك) بِوَصْفِهِ رَمْزًا، بَلْ رَدِيفًا لفَمِ المَحبُوبَةِ؛ ليُلْثَمَ تَقْبِيلًا عِنْدَ غِيَابِهَا؛ ذَلِكَ لأَنَّهُ العُودُ الذي صَافحَ أَسنَانَها، فهِنَا يَطلبُ مِنها هَديَّةً، وَلا أَثْمنَ عِندَهُ مِنْ بَقايَا ذَلكَ المُقبِّلِ فَاهَا –حسبَ تعبيرِهِ– وأَلَّا تَبْخلَ عليه بِهِ؛ لأَنَّ حَاجتَهُ ضَروريَّةٌ عِندَهُ، تَحسُّبًا لسَاعَاتِ غِيَابِهَا عَنهُ، التي تُؤدِّي إلى انْقبَاضِ نفسِهِ، فيُقبِّلُهُ،

لَعَلَّ بهِ يُنفَّسُ عَنهَا. ويُلحَظُ أَنَّ التَّجرِبةَ في جانبِ الوَصلِ لا تُعطِي أَثَرًا عميقًا في النَّفسِ، ومن ثَمَّ في النِّتَاجِ الأَدَبيّ، بقدر ما يُعطيه الهجرُ أَوِ الذِّكرى؛ لِأَنَّهُما يُشكِّلان أَلَمًا للذَّات، فتضطرُّ إلى البَوحِ والشَّكوى من خلال الشِّعرِ، إِذْ لَا تُوجَدُ فِيه –أَي الوصل– قَضَايا كُبرَى، من قِبَلِ المُعَانَاةِ الحَقِيقِيَّةِ، التي تَقضُّ مَضَاجِعَ المُحِبِّ بِأَمْرِ القَلْبِ المُفجَعِ؛ جَرَّاءَ مَا يَحدُثُ مِن تَقلُّبِ الأَمْزِجَةِ فِي الحُبِّ، والخُطُوب التي تَدْلَهِمُّ عَلَيْها، رَغمَ ذَلكَ فَبها يَتَجَلَّى حَالُهُ في هذه المرحلة، فعِنْدَ فَهْمِها؛ سَتَتَّضِحُ آلَامُ المَرْحَلتَينِ اللَّتَينِ تَليهَا. بَعدَ هذَينِ البَيتَينَ يَنتقِلُ إلى وَصْفِ جَمالِهَا ومَكَانتِهَا، فيُخَاطِبُها بالكَوكَبِ الذي يَتبارَى فيهِ الضَّوءُ والرِّفعةُ، أَمَّا الضَّوءُ فحُسنُهَا وجَمالُهَا الذي يَشعُّ كَمَا الكَوكَب، وأَمَّا رِفعتُهَا فَمكانتُها العَالِيَةُ بينَ أَقرَانِها، سَواءٌ أَكَانَ مِن النِّسَاءِ أَمِ الرِّجالِ.

وهُوَ لَمْ يُبالِغْ في الوَصْفَينِ، ولا أَعنِي ذَلكَ بِتشْبِيهِهَا بالكَوكَبِ، فَهذَا التَّشبِيهُ لَمْ يَعُدْ مُبالغَةً؛ لِكَثرةِ ما اسْتعملَهُ الشَّاعِرُ العَربيُّ بِوصْفِ مَحبوبَتِهِ، وإِنَّمَا الجَمالَ والرِّفعَةَ، أَمَّا الجَمَالُ فقَدْ عُرِفَتْ بِهِ وَلَّادةُ من خِلَالِ مَا وُصِفَتْ بهِ بِعَينٍ مُحَايِدَةٍ، فَقَدِ امْتازَتْ "بجمالها الفتان"[٢٧]، وهذا الجَمَالُ الذي وُصِفَ بالفتَّانِ؛ هُوَ مَا اتَّفَقَ عَلَيهِ كُلُّ مَنْ كَتَبَ عَنهَا، وأَمَّا رِفْعَتُهَا فَلَهَا أَكْثرُ مِن مَوْرِدٍ؛ فَهِيَ "أديبة شاعرة، جزلة القول، مطبوعة الشعر، وكانت تخالط الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البراء"[٢٨]، نَاهِيكَ عَنْ مُقارنَتِها بالنِّسَاءِ وَهِيَ التي "كانت في نساء أهل زمانها، واحدةَ أقرانها"[٢٩]، وكذَلِكَ امْتَازَتْ "بحضور البديهة، وسعة الاطلاع"[٣٠]، وغَيرَ ذَلكَ الكَثِير، فقَوْلُنَا إِنَّ ابْنَ زيدون لَمْ يُبالغْ بوصْفِهَا؛ لأَنَّهُ "من المعروف أن العاشق ينزع دوماً إلى سبغ المعشوق بخصال وخصائص لا يتصف بها من وجهة نظر محايدة بعض الشيء."[٣١]، وعِلَّةُ هذَا الاسْتِطْرَادِ بِبَيانِ حَالِ وَلَّادَةَ؛ هُوَ حَقِيقَةُ وَصْفِ ابْنِ زيدون لَهَا، وصِدْقُهُ، وكَذلكَ لإِشارتَينِ، أَوَّلهمَا، هِيَ: من مُفَارقَاتِ هذا الحُبِّ أَنْ تَكُونَ المَعشُوقَةُ بِهذَا الجَمَالِ الخَارِقِ، لا المُسبَغ مِن العَاشِقِ؛ ذلِكَ لأَنَّ "المشهورات، في مجتمعهن، بحسن الصورة الخارجية والجمال الجسماني الخارق فإنهن نادراً ما يتحولن إلى موضوعات مناسبة للعشق بالمعنى التام للكلمة إذ يشار إليهن بالبنان من قبل المجموع وفي الأماكن العامة"[٣٢]؛ والثَّانِيَة تَنبثِقُ مِنهَا؛ لأَنَّ الجَمَالَ الفَاتِنَ، والمَكانَةَ الرَّفيعَةَ، أَرضٌ خِصْبَةٌ لِوِلَادَةِ مُنافسِينَ لَهُ لِلْفَوزِ بِهَا، وهُوَ، عَلِمَ أَوْ لَمْ يَعلمْ أَنَّ هذَينِ المَوصُوفَينِ، الَّذِي يَتغنَّى بِهِمَا ارتِيَاحًا؛ سَيصِيرَانِ مَصْدرَ تَعبٍ ومُعانَاةٍ أَبَديَّةٍ، ولَاتَ حِينَ مَندَمٍ. ثُمَّ يَنتقِلُ فِي البَيْتِ الأَخِيرِ إلى تَقرِيرِ الحَالِ، بأَنَّ رُؤيتَهَا؛ قَرَارُ العَيْنِ وفَوزُها؛ لِأَنَّ هذهِ الرُّؤيَةَ فِيهَا تَحْقِيقُ الخَطِيرِ مِن المُنَى؛ أَيْ أَكبرها، وغاية ما يُريد.

زَمَنُ الوَصْلِ في هذهِ العَلاقةِ قَصِيرٌ، هذا القِصَرُ، وطَبِيْعَةُ الوَصْلِ التي لا تُخرِجُ كُلَّ مَا فِي جُعْبَةِ المُبْدِعِ، من إِبدَاعٍ؛ لِمَا فِيهَا من صَفاء، وعَدمِ اسْتفزازٍ لِذَاتِ الشَّاعِرِ، بَلْ مَحضُ لِقَاءاتٍ فِيها مَا فِي كُلِّ اللِّقاءاتِ بَينَ الحَبيبَينِ، فتَتَشَابَهُ المَشَاعِرُ، وهذا يُؤدِّي إلى تَشَابُهِ الوَصْفِ بينَ الشُّعَرَاءِ من

تَشْبيهٍ واسْتعارةٍ، إلخ. كُلُّ هذا ولا سِيَّمَا قِصَر المُدَّةِ، أَدَّى إلى قِلَّةِ نِتاجِ هذه المَرحلَةِ، وبعدَ قَراءةٍ مُكثَّفَةٍ للدِّيوانِ؛ لَمْ نَجِدْ فِيهِ سِوى مُقَطَّعَاتٍ ثَلاثٍ، إضَافَةً إلى المُقَطَّعةِ التي ذَكرْنَاها سَلفًا، والتي كُتِبَتْ بعدَ اللِّقاءِ الأَوَّلِ بينَهُمَا، وَهِيَ غَيرُ خَالِصَةٍ في الوَصْلِ؛ لِأَنَّها أنبأَتْ عنِ الْهَجْرِ الأَوَّلِ، أَمَّا مَا نُسِبَ لِهذِهِ المَرحلةِ من مُقَطَّعَاتٍ أُخرَى؛ فلا تَنْسَجِمُ معَ الطَّرْحِ الذي قدَّمنَاهُ. وأَمَّا الثَّالِثةُ فَيقولُ فِيهَا [من الطَّويل]:

"وَرامِشَةٍ يَشفي العَليلَ نَسيمُها، مُضَمَّخَةُ الأَنفاسِ، طَيِّبَةُ النَشْرِ
أَشَارَ بِها نَحوِي بَنانٌ مُنَعَّمٌ، لِأَغيَدَ مَكحولِ المَدامِعِ بِالسِحْرِ
سَرَت نَضرَةٌ، مِن عَهدِها، في غُصونِها، وَعُلَّتْ بِمِسكٍ، مِن شَمائِلِهِ الزُّهْرِ
إِذا هُوَ أَهدى الياسَمينَ بِكَفِّهِ، أَخَذتُ النّجومَ الزُّهرَ مِن راحَةِ البَدرِ
لَهُ خُلُقٌ عَذبٌ وَخَلقٌ مُحَسَّنٌ، وَظَرفٌ كَعَرفِ الطّيبِ أَو نَشوَةِ الخَمرِ
يُعَلِّلُ نَفسي مِن حَديثٍ تَلَذُّهُ، كَمِثلِ المُنى وَالوَصْلِ في عُقْبِ الهَجرِ"(٣٣)

وَثَمَّةَ أَبياتٌ أُخَر، يُشَمُّ منها رائحةُ هذه المَرحلةِ، لكنَّها لَيستْ مُنفردةً كَمَا فِي المُقَطَّعَاتِ التي ذَكَرْنَاهَا، بَلْ هي في مُقَدّمَةِ قَصَائدَ طِوَالٍ لِأَجْلِ المَدِيحِ، أَخُصُّ بِالذِّكْرِ التِي يَمدَحُ فِيها ابنَ جَهْورٍ؛ وذَلِكَ لِتَزامُنِها مَعَ مَرحَلَةِ الوَصْلِ، وأَمَّا القَصائدُ التي يَمدحُ فيها ابنَ عبَّادٍ، فَهِيَ مُسْتَثْنَاةٌ؛ بِحُكْمِ الزَّمَنِ، الذي تَنضَوي فِيهِ إلى المَرحَلةِ الثَّالثَةِ، وَهِيَ كذلكَ ذاتُ مُقَدّمَاتٍ غَزليَّةٍ، ولا نَعزُو النَّسيبَ فيها إلى الوَصْلِ، بَلْ هُوَ تَقليدٌ لِمَا تَوارثَهُ الشُّعرَاءُ من كِتابَةِ مُقَدّمَةٍ غَزليَّةٍ كافتتاحيَّةٍ لِقصائدِهِم، وما كَانَ ابنُ زَيدون بِدْعًا من الشُّعرَاءِ. ولِذا لا نَجِدُ المَقامَ يُتِيحُ لَنَا بِنَسْبِ هذهِ المُقَدّمَاتِ إلى هذهِ المَرحَلَةِ.

ثانيًا: الهَجْر:

بَعْدَ ارْتِشَافِ رَحِيقِ الهَنَاءةِ فِي الحُبِّ، على الرَّغْمِ من قِصرِها إلَّا أنَّها كانتْ مصدرَ سَعَادةٍ وارتِيَاحٍ؛ جاءَ وقتُ الهَجْرِ على هذهِ العَلاقَةِ. وقدْ عرَفْنَا أَنَّ الوُشاةَ آفَةٌ من آفاتِ الحُبِّ، عَلَيْنَا أَنْ نَعرفَ بِأَنَّ "من آفاتِ الحبِّ أيضًا الهجر"(٣٤)، وهذا الارْتِباطُ الوَثِيقُ بَينَ هاتينِ الآفَتينِ جَلِيٌّ في هذهِ التَّجرِبَةِ، وكَمَا بَيَّنَّا في مَحلِّهِ بِأَنَّ الهَجْرَ هَجرانِ، الأَوَّلُ منه؛ لَمْ يَلبَثْ إِلَّا قَليلًا، فتأثيرُهُ لم يكُنْ شَديدًا على نَفْسِ ابنِ زيدون، وإِنَّما التَّأثيرُ كُلّ التَّأثيرِ في الهَجرِ الثَّاني، وهو مَحَلُّ دِراستِنا، التي نَصبو إلى سَبغِ أَغوارِهِ بالوُقوفِ على تَجلِّيَاتِهِ؛ إِلَّا أَنَّ تأثيرَ الهَجرِ يَكونُ بِحسبِ المُؤثِّرِ،

وبِاستيعابِ ابنِ حَزمٍ لهذهِ المَسألةِ، رأى أَنَّ الهَجْرَ على ضُروبٍ، وهنالكَ ضَربانِ كانَا مِصداقَينِ للهَجْرِ في هذهِ العَلاقَةِ، أَوَّلُهُمَا؛ الهَجْرُ الذي " يوجبُه العتاب لذنب يقع من المحب، وهذا فيه بعضُ الشدة، لكن فرحةُ الرجعة، وسرور الرضى، يَعْدِل ما مضى، فإنّ لرِضَى المحبوب بعد سُخْطِه لذةً في القلب لا تَعْدِلها لذة، وموقفًا من الرُّوح لا يفُوقه شيءٌ من أسباب الدنيا."[٣٥]، ونتيجةُ الرُّجوعِ من فَرحٍ وسُرورٍ قَدْ وقفنَا على حَيثيَّاتِها وكيفَ كانَتْ؛ من خِلالِ شِعرِه، أَمَّا السَّببُ؛ فيُعَدُّ ضَربًا من ضُروبِ الهَجْرِ الذي حَدَثَ بعدَ اللَّيلَةِ التي التَقَيَا بِها؛ فَقَدْ ذَكرَهُ ابْنُ زيدون بِقَولِهِ: "وكانت عُتبةُ قد غنتنا:

أحـــبّتَنا إنـــي بلغـــتُ مؤمّـــلي ... وســـاعدني دهـــري وواصـــلني حبـــي

وجـــاءَ يُهنينـــي البشـــيرُ بقُرْبِـــه ... فأعطيـــتُه نـــفسي وزدتُ لـــه قلبـــي

فسألتُها الإعادة، بغيرِ أمْرٍ ولَّادة، فخبا منها برقُ التبسم، وبدا عارضُ التجهُّم، وعاتبتْ عتبةَ، فقلتُ:

ومـــا ضـــربتْ عُتبـــى لـــذنبٍ أتـــتْ بـــه ... ولكنمـــا وَلّادَةٌ تشـتهـــي ضَربـــي

فقامـــت تَجُـــرُّ الذيـــلَ عاثـــرةً بـــه ... وتمســـحُ طـــل الـــدمع بـــالعنم الرَطـــبِ

فبتنا على العتاب، في غير اصطحاب، ودمُ المُدامِ مَسْفُوك، ومَأخَذُ اللّهوِ متروك."[٣٦]، وهذا الهَجرُ الذي يَحدثُ من أَجلِ ذَنبٍ اقترفَهُ المُحبُّ، من وُجهةِ نَظرِ المَحبوبةِ، سرعانَ ما يُغتَفرُ بَعدمَا يأتي المُحبُّ بحُججٍ تُظهِرُ براءتهُ، والسَّببُ- كما رأينا- باعثُهُ؛ غَيرةُ ولَّادةَ على مَحبوبِها، فما إنْ يَقضِ وقتُهُ المَقدورُ حتَّى تعودَ السَّعادةُ تَعلو مُحيَّا الحَبيبَينِ. وأَمَّا الضَّربُ الثَّاني، فالهَجرُ الذي "يُوجبُه الوُشاة ... وفيما يتولّدُ من دبيب عَقارِبِهم، وربما كان سببًا للمقاطعة ألبتة."[٣٧] وهذا ما كانَ في هذه العَلاقةِ؛ كمَا تَقدَّمَ القولُ فيهَا. والحُبُّ في هذه المَرحلةِ من النَّوعِ "الذي يحيينا ويدمّرنا ويميتنا ويترك آثاره علينا مدى الحياة. إنه الحب العاصف التعيس الذي يلهب الخيال وينساب معه العاشق"[٣٨] فهُوَ على طرفٍ نَقيضٍ من الوَصْلِ، فَفيهِ تَتحرَّكُ مَشاعِرُ الإنسانِ العَميقةُ، التي تؤدِّي إلى نِتاجٍ وَفيرٍ، وبأَلوانٍ مُختلفةٍ تُحزنُ النَّاظرِينَ؛ تُولَدُ من الشِّدَّةِ التي يُخَلِّفُها الهَجرُ، ومن تِلكَ الأَلوانِ ما يأتي:

أ-الشَّكوى:

الشَّكْوى تدلُّ "على توجُّع من شيء"[٣٩]، والوَجَعُ على ضَربَينِ إمَّا مادِّيّ -جسديّ- وإمَّا معنويّ -روحيّ- أَمَّا الأَوَّلُ فهَينٌ؛ لأَنَّهُ ظاهريٌّ، ومَعروفٌ أَمرُهُ، وأَمَّا الثَّاني فعَسيرٌ؛ لأَنَّهُ داخليٌّ، حَيثُ

حنايا القَلبِ، وما يهمُّنا منه وهو قَضيةُ مَوضوعِنا؛ الوَجعُ المَعنويُّ الذي يُنتجُه الهَجرُ، فتكون العَينُ قرينَتَه، بِكُلِّ ما يُنغِّصُ عَليهَا راحتَهَا من بُكاءٍ وَأَرقٍ، ومَا يُخَلِّفانَهُ من آثارٍ، وهذا الأَمْرُ لا مَناصَ مِنهُ، فقَد قِيلَ "قطيعة الوصال قطع الأوصال."[٤٠] وَقَطعُ أوصالِ العَينِ يَكون؛ بذرفِ الدُّموعِ، وبهجرةِ النَّومِ عنهَا، وقَد تجلّتَا في قَولِهِ [من البسيط]:

"تبكي فِراقَكَ عَينٌ، أنتَ ناظِرُها، قد لَجّ في هَجرِها عَن هَجرِكَ الوَسَنُ
إنّ الزّمانَ الّذي عَهدي بِهِ حَسَنٌ، قَد حالَ مذ غابَ عَنّي وَجهُكَ الحَسَنُ"[٤١]

صَرَّحَ بهِمَا –أي البكاء والأرق– شاكيًا لهَا حضورهمَا، من الوَجعِ، الذي خلَّفَهُ فِراقُها. وهذا الهَجرُ لم يَكنْ يظنُّه سَيحصلُ يَومًا؛ لأَنَّهُ أَحسنَهُ بمحبوبتِهِ، كَما لو أَنَّهُ لم يُحسنْهُ بشيءٍ آخر مثلَ حُسنِهِ بِها، وحُسنُ الظَّنِّ هُنا يُوجبُ دَوامَ الوِصالِ، وعدمَ حُضورِ الهِجرانِ، فمَا إنْ فارقَه وجهُهَا الجَميلُ –بوصفه– حتَّى تحَوَّلَ حُسنُ ظنِّه بالأَشياءِ إلى سوءِ ظَنٍّ؛ ذلك لأَنَّ القُدوةَ بالوَفاءِ قدْ خَانَ، فمَا الذي يُرتجَى من غَيرِهِ، ومِن تلكَ الأَشياءِ؛ الزَّمان، هذا الذي عُرِفَ بتقلُّبِه، كِسِمَةٍ يتَّصفُ بِهَا.

ومن هذا، تَتَّضحُ لنا حياةُ ابنِ زيدون، كيف كانتْ في الوِصالِ؛ حيثُ الصَّفاءُ الذِّهنيُّ الذي لم يَخلطْ بِهِ شيئًا

معَ مَحبوبتِهِ؛ لأَنَّهُ لا يُريدُ إِشْغالَهُ بأَشياءٍ أُخرَى، من شأَنِها أنْ تُكَدِّرَ عليه ذلك الصَّفاءَ، أَمَّا الزَّمانُ الذي ذكرَهُ، فإنَّما هو زمانُ الوَصلِ، وما بعدَه سيكونُ غَيرَ ذلكَ، وفي شَكوى أُخرى، قال فيها [من الطَّويل]:

"فَدَيتُكَ، ما للماء، عذْباً على الصّدى، وإنْ سُمتَني خَسفاً، مَحلُّكَ من قَلبي
وَلَوْلاكَ، ما ضَاقتْ حَشايَ، صَبابةً، جَعلتُ قِراها الدّمعَ سكباً على سكبِ"[٤٢]

يَأتِي بالدَّمعِ مرَّةً أُخرَى؛ كقرينةٍ للتَّوجُّعِ الذي أَلَمَّ به من الهَجرِ، الذي أَتَتْ به. البَيتُ الثَّاني تَظهرُ فيه ملامحُ اللَّومِ، إلَّا أنَّه عندَ الجَمعِ بينَ البَيتينِ؛ تَرجَحُ كَفَّةُ الشَّكوى، واللَّومُ يَظهرُ في كَلمةِ (لولاك)، هو لَومٌ، ولكن؛ لِأَجلِ الشَّكوى كما سيتَّضحُ. يَقولُ لَهَا: أَفديكِ بنفسِي وبالمَاءِ العَذْبِ عِندَ العَطشِ مهما أَتْعبْتِني وأَتْلفْتِنِي؛ لأَنَّ الذي يأمرُني بذلكَ قَلبي، وما بِه سِواكِ، وقد يُطرَحُ سُؤالٌ إذا ما فدَى شَخصٌ شَخصًا بنفسِه، فما مَحلُّ فدائِهِ بعذبِ الماءِ عندَ العَطشِ؟ ويَكونُ الجُوابُ شرطَ النَّظرةِ البصيرةِ للمَقامِ الذي يَحكي فيه؛ لِأَنَّهُ استخدمَ الجَانبَ العَاطفيَّ للإنسانِ بوَجهٍ عامٍّ، فلو أَنَّ إنسانًا أخذَ العَطشُ مِنه مأخذًا، ويرى ماءً في جَانبٍ، يَعلمُ أَنَّ ذهابَهُ إليهِ كَفيلٌ بتعريضِ حياتِهِ إلى

مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦ / العدد ٤

الهَلاكِ، لذهبَ إليهِ دُونَ حُسْبانٍ لهَلاكِهِ، وهذهِ نَتيجةٌ طَبيعيَّةٌ لِمَا يَعلمُه من هَلاكٍ مَحتومٍ؛ سببُه العَطشُ. فإذِ الْجانبُ العَاطفيُّ يَطفو على الحَالِ، ولِذا فالمَقامُ يُعلي من شَأنِ هذا الشّاهِدِ، فقد ذَكرَ الكُلّي –نفسه– ومِنْ ثَمَّ جاءَ بأَعلى شَاهدٍ جُزئيٍّ؛ كَمثالٍ على صِدقِ قولِه. ومَنْ لهُ اسْتعدادٌ بفعلِ هذا، ويُقابَلُ بالجَفاءِ والبُعدِ، فما المُتوقعُ من قلبِه الذي أَسْكنَ المُبعِدَ له؛ غير الضّيقِ شَوقًا، لاحتضانِ مَنْ سكنَه طَوعًا، هذا الضّيقُ أدَّى إلى تَفنُنِ العَينِ –الجائعة إلى رؤية المحبوبة، بإيعازٍ من القلب– بالآهاتِ، فجعلتِ الدُّموعَ شرابًا وطعامًا يُسكَبُ باسْتمرارٍ.

ولذَا فغرضُ الغَرضِ من اللَّومِ المُخبَأِ في هذه الشّكاوى؛ هو شَكواهُ لَها، إذْ لمْ يَشتكِ لشيءٍ آخر علَيْها، وهُوَ

إشارةٌ منه إليها، عن صَيرورةِ حالِه، بعد ما عَلِمتْهُ في مرحلةِ الوَصلِ، ويُريدُ منها، إعادةَ النَّظرِ في قرارِها؛ علَّها

تعودُ عمَّا أَزمعَتْ عليهِ، وهذه الأَبياتُ تَتَزامنُ بينَ فترتي الإمْكانِ والاضْطرابِ الذي ذكرناهُما في المَبحثِ الثَّاني.

ب–العِتاب:

جَاءَ في العَينِ: "المُعاتبة: إذا لامك واستزادك، قال:

إذا ذهبَ العِتابُ فليس حبٌّ

ويَبْقَى الحبُّ ما بقيَ العِتابُ"(٤٣)

فعِندَما نقولُ عاتَبَهُ، أي أَنَّهُ "لامَهُ وخاطَبَه مخاطَبَةَ الإدلالِ طالباً حُسْنَ مراجَعَتِهِ ومذَكِّرًا إياهُ بما كَرِهَه منه."(٤٤) و"تعاتبَ الصَّديقان: لام كلٌّ منهما الآخر برفق."(٤٥)

فالعِتابُ هو لَومٌ بلِينٍ، وغايتُه عَودةُ المُعاتَبِ عن الفِعلِ الذي يَكرهُهُ المُعاتِبُ، وَمكانُهُ في الحُبِّ فَسيحٌ. والعِتابُ في هذهِ المَرحلةِ كثيرٌ جدًّا، لمُطابقتِهِ واقع حالِها، ومن أَهمِّ النَّماذجِ قوله [من السَّريع]:

"أعتِبُ، مِن ظُلمِكَ لي جاهداً،	وَيَغْلِبُ الشّوْقُ، فأستَعتِبُ
ألزَمْتَني الذّنْبَ الذي جِئتَهُ،	صَدَقْتَ، فاصْفَحْ أيّها المُذنِبُ"(٤٦)

عِندَما يَشعرُ الإنسانُ بظُلمٍ، وظَالمُه ذُو نُفوذٍ على قَلبِهِ، وهو لا يَعلمُ أَكَانَ عَامدًا بظُلمِهِ أَمْ سَاهيًا، ويُريدُ إظهارَ انزعاجِهِ من فِعلتِه، وفي الآنِ نَفسِهِ، لا يُريدُ قَطعَ الحَبائلِ بينهُما، من الطَّريقةِ التي يحتجُّ بها؛ يعمد إلى أُسلوبٍ يُراعي به الطَّرفَ الآخر؛ كي لا يخسرهُ، والأُسلوبُ المُناسبُ في مِثلِ هكذا حالَةٍ، لا يكونُ إلّا بالعِتابِ، لكنَّهُ العتاب الذي ينتهي بطلب الرِّضا، وهذه لمفارقةٌ كُبرى، لا

تكون إلَّا بالحُبِّ، وثَمَّةَ مُفارقةٌ أُخرى بادِّعاءِ الذنبِ، الَّذِي صارَ حائِلًا أمام ديْمومةِ العَلاقةِ، إذْ أَصبحَ كَكُرةٍ تُرمى بين الطَّرفَينِ، كُلٌّ يَراهُ بطريقتِهِ، ولَّادةُ قد ألزمَتْهُ ذَنبًا، وهُوَ يَرَى الإلزامَ بَاطلًا، فصارَتْ هي المُذنبةَ؛ لأَنَّها لم تسمعْ حُججَهُ التي جاء بها، ولم ترَ اعتبارًا لما كتبَه من قصائدَ يَشكو حالَهُ من جفائِها، فأَدَّى إلى إقرارِهِ بالذَّنبِ، وَطَلَبِ الصَّفحِ مِنها، حتَّى تَغفرَ، فيرجعان. فعندَما يُسلِّمُ المُحبُّ بظُلامةٍ لم يقترفْهَا، لأَجلِ إرضاءِ المَحبوبةِ الظَالمةِ، يكون الهدفُ أسمى من إظهار العتاب لأجلِ العتابِ نفسِهِ، بل لغايةٍ ينشدها، وهي إعادة صاحبته إلى كنفهِ، بأُسلوبٍ رآهُ مُؤثِّرًا لفعلِ ذلك. وقال أيضًا [من الكامل]:

"باعَدْتِ بِالإِعراضِ، غَيرَ مُباعِدِ، ... وَزَهَدْتِ فيمَنْ لَيسَ فيكِ بِزَاهِدِ
وَسَقَيْتِني، مِن ماءِ هَجرِكِ، ما لَهُ ... أَصْبَحْتُ أَشْرَقُ بِالزُّلالِ البَارِدِ
هَلّا جَعَلتِ، فَدَتْكِ نَفسي، غايَةً ... لِلعَتْبِ، أَبْلُغُها بِجَهْدِ الجاهِدِ
لا تُفسِدَنْ، ما قَدْ تأكّدَ بَينَنا ... مِن صالِحٍ، خَطَرَاتُ ظَنٍّ فاسِدِ"(٤٧)

إنَّ مَطلعَ هذا البَيتِ قدِ انْزاحَ عن اللَّومِ اللَّيِّنِ، إلى لَومٍ حَادٍّ، فالعِتابُ لَبِسَ ثَوبَ التَّأنيبِ، وهو "لَوْم شديد على خطأ أو تصرّف للرّدع والإصلاح"(٤٨)، ولكنَّهُ لمْ يَخرجْ عن غَرضِهِ الرَّئيسِ؛ فبـ(لينه وحدَّته) –أي العتاب– يَنشدُ إصلاحَ ما أَفسدَهُ المُعاتَبُ والدَّهرُ، أَمَّا تبدُّلُ الأُسلوبِ؛ فَلعدمِ الاسْتِجابةِ لِمَا أَبداهُ مِنْ نُصحٍ لَهَا؛ لِلْعَودةِ عَمَّا أَتَتْ بِهِ من جَفاءٍ لَهُ، ولِذا أَنَّبهَا على ابتعادِها؛ بالصَّدِّ والهَجرِ، لمَن ليسَ بِبَعيدٍ عنهَا مَكانيًّا وَمَعنويًّا، وزهِدَتْ بالذي أَغْلاها، وكفى بهذِهِ المُفارقةِ تأنيبًا لها، ومِن ثَمَّ جاءَ باسْتعارةٍ للهَجرِ بِحذفِ المُشَّبَهِ بِهِ وهو (البحر) وَذَكَرَ أَحدَ لوازمِهِ وهو الشُّربُ، الذي سقَتْهُ منه، لِمَ البَحرِ؟ لأَنَّ ماءَهُ غَيرُ صَالحٍ للشُّربِ؛ ذلك لملاءَمَتِهِ حال الهَجْرِ، وهذا المَاءُ الأُجَاجُ قد أنساهُ طعمَ الزُّلالِ، فصارَ يَشرقُ بالعذبِ البَارِدِ، بعدَما كانَ يَلَذُّ بهِ، وافتتحَ البَيتَ الثَّالِثَ بـ (هلَّا) وهي "إنْ دخلَتْ على الماضي كانتْ لجعلِ الفاعلِ يندَمُ على فواتِ الأمر وعلى التَّهاون به"(٤٩) ويَختتِمُها بإخبارِها –أي المحبوبة– على فَسادِ ظَنِّها الذي يَتلاعَبُ بِرأيِهَا، ويَنهاهَا أَنْ تَتَوقَّفَ عن ذلكَ؛ لأَنَّهُ سَيُفسدُ ما ثبتَ من خَيْرٍ وصَلاحٍ في عَلاقتِهمَا أَيَّامَ الوَصْلِ.

ومن تَجلِّيَاته أيضًا؛ قَولُه [من الكامل]:

"أَرخَصْتِني، مِن بَعدِ ما أَغْلَيْتِني، ... وَحَطَطْتِني، وَلَطالَما أعْلَيتِني
بادَرْتِني بِالعَزلِ عَن خُطَطِ الرِّضَى، ... وَلَقد مَحضْتُ النّصْحَ، إذْ وَلّيْتِني

هَـلّا، وَقَـدْ أَعْلَقْتِنـي شَـرَكَ الهَـوَى عَلّلْتِنـــي بِالوَصْـلِ، أَو سَلّيْتِنـي؟

الصّبْـرُ شَـهْـدٌ، عِنْـدَما جَرّعْتِتِـني، وَالنّـارُ بَـرْدٌ، عِنْـدمـا أَصْلَيْتِنـي"[٥٠]

ظَلَّ ابْنُ زيدون مُتأَرجِحًا، بينَ اسْتعطافٍ، وعِتابٍ بشقَّيهِ؛ الشِّدة واللِّين؛ طَلَبًا لِنَيلِ المُبتغَى. وثَمَّةَ شَاهدٌ يُمكنُ الإفادة مِنهُ في هذا المَقامِ؛ لِلْإيغالِ في مَاهيَّةِ هذه المَرحلةِ؛ مَوجودٌ في البَيتِ الثَّالِثِ؛ أَنَّ مَوقفَها مَشوبٌ عنده بالغُموضِ، وَعَدمِ الوضُوحِ هذا يُستنتَجُ مِنهُ أَمْرانِ؛ الأَوّلُ؛ عَدمُ مُبالاتِها لمشاعرِهِ المَكتوبةِ شِعرًا، فَهِيَ لا تُظْهِرُ الاستجابةَ للعَودةِ، ولا تُبدي مَوقفًا وَاضِحًا لإِنهاءِ العَلاقةِ، هذا بعدَما انطفأَتْ بَارِقةُ الأَمَلِ التي ذكرَها في مَوضعٍ آخر؛ لانقضاءِ وقتِها بالسِّياقِ الزَّماني الذي أَتْلَفَها. والأَمْرُ الثَّاني؛ أَنَّ المَشاعِرَ المَكتوبةِ لَمْ تُؤدِّ غرضَها الرَّئيسَ، فأَوَّلَ ذلكَ؛ بَعدمِ فَهمِهَا الحَالَ الذي كُتبِتْ لِأَجلِهِ، ولذلكَ قَالَ [من المجتث]:

"مَتَـــــى يَـنُـــــوبُ لِسَـــانِــــي، فـــي شَرْحِـــهِ، عـــنْ كتـــابي؟"[٥١]

يُلمَحُ من هذا أَنَّ تَذبذبَ مَوقفِها؛ جَعلَهُ شَاكًّا بالفائدةِ المُرتجَاةِ من بَعثِهِ القَصائدَ، كَرسائلَ، يَشرحُ، ويَسأَلُ، ويُبرِّرُ فِيهَا، أي أَنَّهُ يُوضِّحُ بِها ما كانَ غَامِضًا عندَها، بَيْدَ أَنَّها لم تُحقِّقْ غَرضَها، فراحَ يَطلِبُ لِقاءً، عَبر هذهِ الرَّسائلَ، لعلَّ بهذا اللِّقاءِ يتمُّ حَسمَ الأَمرِ، إمَّا بالعَودةِ إلى ما كانَا به عند الوِصَالِ، أو حتَّى بأملٍ لذلكَ؛ وإمَّا أَنْ يُنهى الأمرُ بمَوقفٍ وَاضِحٍ منها، فلَمْ يَرَ ردًّا لهذا أيضًا، فاضطرَّ إلى تَغييرٍ كَاملٍ في أُسلوبِ كِتابتِهِ، إذْ صَارَ العِتابُ هِجاءً.

ج–الهِجاء:

عندما يُقال هجا "فلاناً، هَجْوًا، وهِجاءً: ذمَّهُ وعدّد معايبه"[٥٢] ففي الهِجاءِ؛ تَحوّلٌ في الطَّريقةِ التي اتَّخَذَها ابنُ

زيدون، والتَّحوّل يكون وفق مُعطياتٍ تخرجُ بها الذات؛ بالثَّوبِ الذي يُلائم المرحلة، ولذلك هجاها قائلًا [من البسيط]:

"أَكْـــرِم بِـــوَلّادَةٍ ذُخــــراً لِـمُـــدَّخِـــرٍ لَــو فَـرَّقَــت بَـيــنَ بَـيـطـارٍ وَعَـطّـارِ

قـالـوا أَبـو عـامِـرٍ أَضـحـى يُـلِـمُّ بِـهـا، قُـلـتُ: الـفَـراشَـةُ قَـد تَـدنـو مِـنَ الـنـارِ

عَيَّـرتُـمـونـا بِـأَن قَـد صـارَ يَـخـلُـفُـنـا فيـمَـن نُـحِـبُّ وَمـا فـي ذاكَ مِـن عـارِ

أَكْـلٌ شَـهِـيٌّ أَصَـبـنـا مِـن أَطـايِـبِـهِ بَـعضـاً وَبَـعضـاً صَـفَـحـنـا عَـنـهُ لِلفـارِ"[٥٣]

مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٦ المجلد ١٦ / العدد ٤

يَبدأُ بـ(أَكْرِم)؛ مَطْلَعًا لهذهِ الأبياتِ، فعندَما يُفتتَحُ الكَلامُ بمديحٍ، وَهُوَ كاختيارٍ كانَ منَ المُمكِنِ إحرازه، إلّا أَنَّ صَاحبَهُ قدْ جانبَ المُمْكِنَ، يَكونُ الذَّمُّ أَوقع على النَّفسِ، مِنهُ لو كان مُباشرًا، فيقولُ أَكرمْ بِها ذُخرًا لمن يُرِيدُ إبقاءَهَا في حَياتِهِ، لمُواجَهةِ مُلمَّاتِ الزَّمانِ، لو أنَّها تستطيعُ التَّفريقَ بينَ البيطارِ والعَطَّارِ، فقد جاءَ بالبيطارِ؛ وَهُوَ الرَّجلُ المُعالِجُ لـ"لدوابّ من الداء"(٥٤)، وبالعَطَّار؛ "بائعُ العِطْر"(٥٥)، وأَرَادَ التَّناقُضَ بين الرَّجلَين، التَّناقضُ يَكمنُ في الرَّائحةِ التي تُلصَقُ بهمَا من العَملِ المُمتهَنِ، فَهِيَ لا تُفَرِّقُ بينَ الرائِحةِ الكَريهةِ التي تَخرجُ من الحَيوانِ، والرَّائحةِ الطَّيِّبَةِ التي يُخرجُهَا العِطرُ المَنبثِقُ من الوَردِ، وهو لا يَأملُ مِنها التَّفريقَ بينهُما؛ لِأَنَّهُ جَاءَ بالحرفِ (لو) الذي يُفيدُ الامْتناعَ، هذا الامتناعُ سببُه عدم القُدرةِ على التَّمييزِ بينَ البَخسِ والثَّمينِ، وَقَدْ قالَ ذلكَ؛ بعدَ أنْ عَيَّرَهُ المُبغضُونَ؛ بإشاعةِ خبرِ القُربِ بينَ ولَّادة وأَبي عَامرٍ –ابن عبدوس– بعدَ مَعرفتِهِ بالعَلاقَةِ الغَراميَّةِ بينَ ابنِ زيدون وولَّادةَ، هذا القَولُ، وهذا القُربُ؛ قابلَتْهُمَا (ردَّةُ فِعْلٍ) من ابنِ زيدون، فأَجابَهم بأَنَّ القُرْبَ بينهُما، وهذا يعني تَبدُّل قَلبِ المَحبوبةِ وإقبالهِ إلى شخصٍ آخر، وهو يَعلمُ أَنَّ المَقصودَ مِن كَلامِهِم، إدبارُ قَلبِها عَنهُ؛ لا يَعني لَهُ شَيئًا، كيفَ ذلك؟ لأَنَّها لا تَعدو أنْ تَكونَ نَزوةً، فَقَدْ رَآها فَتاةً جَميلةً، بتشبيهِهَا بالطَّعامِ الشَّهيّ؛ الذي اشتهَتْه نفسُهُ فما أَنِ انتهتْ اللَّذةُ، والإشباعُ، حتَّى صَرفَ الاهتمَامَ عَنهَا، ثُمَّ لمْ يَعُدْ يهمُّهُ أَمرَها، بَلْ من كَرمِهِ على من يُعيِّر بِهِ؛ أَنَّهُ تَركَ جُزْءًا مِنها لَهُ، وما يَعنيهِ بالمَعادلةِ هذهِ، أَنَّهُ هُوَ من ابتدأَ بالطَّعامِ، ومن جَاءَ بعدَهُ فَقَدْ أَكلَ فَضلاتَ طَعامِهِ، ولِذلكَ فتعييرهم لَيسَ بِعارٍ.

وثَمَّةَ مُقَطَّعَةٌ أُخرَى يُرَى فيها مَلامِحُ الهِجاءِ؛ تَتَجلَّى، بِقولِهِ [من الخَفيف]:

"قَـد عَلِقنـا سِـواكِ عِلقاً نَفيساً	**وَصَرَفـنـا إِلَيـهِ عَـنـكِ النُـفوسـا**
وَلَبِسنـا الجَـديـدَ مِـن خِلـعِ الحُـ	**بِّ وَلَـم نَـأْلُ أَن خَـلَعنـا اللَبيسـا**
لَـيـسَ مِـنـكِ الـهَـوى وَلا أَنـتِ مِـنـهُ	**اهبطي مِصرَ أَنتِ مِن قَومِ موسى"(٥٦)**

يُخاطِبُهَا بِصورةٍ مُباشرةٍ بأَنَّـهُ هَوَى غيرَها، وسَبب ذلك أَنَّ الغَيرَ؛ عِلْقٌ، والعِلْقُ هُوَ "الشَّيء النفيس"(٥٧) معَ ذلكَ وصفَهُ بالنَّفيسِ؛ تَوكيدًا لنَفاستِه، والأَشياءِ تُعرَفُ بأَضدادِهَا، وهذا يَعني كَمُوازنةٍ مع البَديلِ؛ أَنَّها بَخسٌ، كأَنَّه يَعودُ لما ذَكرَهُ في المُقطَّعةِ السَّابِقَةِ، أَنَّ عَدمَ تَفريقِهَا بَينَ البَخسِ والثَّمينِ؛ أمارةٌ على ماهيَّتِها، فهذه المَعرفَةُ التي خَرجَ مِنهَا، جعلَتْهُ يَبحثُ عن مَنْ يُميِّزَ بينَهُمَا، ولذا فَمُضمرُ هذا البَيتِ يُصَرِّحُ بهذا. فيأتي بِعجزِ البَيتِ كَنتيجةٍ لِصدرِهِ؛ بأَنَّ طَبيعةَ نَفسِهِ تُقبلُ على ما هو ثَمينٌ، مُتجاوزةً؛ من تَجد فيه العَكسَ من ذلكَ، ولذا فالآنَ يرتدي ثيابًا جَديدةً،

تَليقُ به بعدما خَلعَ القَديمَ، الذي لم يَجِدْ فِيه هَناءً، وقَد استعارَ للحُبِّ بالثِّيابِ، وَهِيَ –أي ولادة– لَمْ تَعُدْ سِوى ثِيابٍ بَاليةٍ لا تَليقُ بِهِ، فَهِيَ ليستْ أَهلًا للحُبِّ؛ لِمَا تَقدَّمَ، ثُمَّ يَذهبُ إلى أَبعدَ من ذلكَ بقولِه: (اهبطي مِصرَ أَنتِ مِن قَومِ موسى) مُتناصًّا مع الآيةِ القُرآنيةِ: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۖ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾[٥٨]، وبهذا التَّناصّ أَرَادَ شَيئًا أَكْبرَ مِن تَشبيهِها باليَهودِ[٥٩]؛ بجعلِها من قَومِ مُوسى (عليه السَّلامُ)، بَلْ أَرادَ البُعدَ السِّياقِي لهذهِ الآيةِ، وَهُوَ؛ أَنَّ اللهَ قد أَنزلَ عليهِم طَعامًا من الجَنَّةِ، فطلبُوا غيرَهُ؛ مِمَّا تُنبتُ الأَرضُ، هذا الطَّلَبُ الذي تعجَّبَ لهُ النَّبيُّ مُوسى (عليه السَّلامُ)؛ بِقولِه: أَتستبدِلُونَ الذي هُوَ أَدْنَى بالذي هو خَيرٌ، وهذا يَعني تعجُّبِ ابنِ زيدون من استبدالِه وَهُوَ الأَعلى –الخير– بالَّذي هو أَدنى –البخس– عِندَها قَالَ: اهبطي مِصْرًا فإِنَّكِ ستجدينَ ذلكَ؛ في الذي استبدلْتِهِ بي، وهذا الهُبوطُ سيأخذُهَا حَيثُ الذِّلة والمَسكنة، والهُبوطُ في كَلمةِ اهبطِي يُوجبُ الدُّنوَ؛ وهي النِّيمةُ الرَّئيسةُ التي تَدورُ عليها مُقَطَّعَتَا الهِجاءِ، وعَجْزُ البيتُ الأخيرِ؛ يَدلُّ على المَلكَةِ الشِّعريَّةِ التي امْتازَ بِهَا ابْنُ زيدون مع ثقافتِهِ الوَاسعةِ، وحضورها بالوَقتِ الذي يَجِبُ أَنْ تَحضرَ فِيهِ، فَهُوَ لم يتجاوزْ الوحدةَ العُضويَّةَ في مُقطَّعتَينِ؛ ذلك لأَنَّ موضوعَهُما وَاحِدٌ.

ويُلحَظُ من تأمُّلِ هاتين المُقَطَّعتينِ، أَنَّ ثمَّةَ تجلِّيًا لبُعدٍ نفسيٍّ آنيٍّ؛ من الانفعَالاتِ التي حَدثَتْ له، جرَّاءَ ما لَاقَاهُ من أَفعالِ المَحبوبةِ، بعدَما شَكى لها حالَهُ من بُعدها، فعاتبَها –بروافده؛ اللَّوم والاستعطاف والتَّأنيب– وهي لم تأْلُ بالًا؛ لمشاعرِه المُعْلَنَةِ، فجاءَتْ (رَدَّةُ الفِعْلِ) منه؛ بِكتابتِهِ هاتين المُقطَّعَتَينِ، كَنتيجةٍ حَتميَّةٍ لِعَدمِ اسْتجابَتِها، وهُمَا لمْ تُمثِّلا حقيقةَ ولَّادةَ عِندَ ابنِ زيدون؛ ذلك لأَنَّ المَرحلةَ التي تَلَتْها تُبيِّنُ الحَالةَ الحَقيقيَّةَ التي كانَ فِيها ابنُ زيدون، ولا نَعجلُ بذكرِها، لِأَنَّنَا سَنقِفُ عَليها، لمعرفةِ حَقيقةِ قَولِهِ هذا، إِلَّا أَنَّ هاتين المُقطَّعتَينِ سيكونانِ سَبَبًا في انبثاقِ المَرحلةَ الثَّالثةِ –الذِّكرى– فإِنَّ ولَّادةَ –واحدة زمانها كما عرفنا– لن تَقبلَ بالعَودةِ قَطُّ؛ إلى مَنْ وصفَها بهذه الأوصَافِ المهينةِ، ولذا جازَ لنا القولُ: إِنَّ ابنَ زيدون هو الذي قَضى على أَحلامِهِ بِقلمِهِ، فموتُه المَعنويُّ الذي تقدَّم ذِكره؛ بموتِ الأَمانيّ؛ مِمَّا جَنَتْهُ يداهُ، بكتابةِ هاتين المُقطَّعتينِ والرِّسالةِ الهَزليَّةِ، فهُما سَببٌ رئيسٌ في القضاءِ على هذه العَلاقةِ، فسَيصيرُ من كان قادرًا على أن يعتب، ويهجو ...، إلى فاقدٍ لا يملكُ إِلَّا الحَنينَ والبُكاءَ.

ثالثا: الذِّكرى:

الذِّكْرى بوصفِها "نقيض النسيان"[٦٠]، يَكونُ فيها الماضي حَاضرًا، وابنُ زيدون قد وَعَدَ مَحبوبتَه بذلك قائلًا:

"**لا تَخشَ منيَ نِسياناً، وَلا بَدَلا**"(٦١)، كَانَ الوَعدُ في بدايةِ المَرحلةِ الثَّانيةِ –أي بداية الهجر–؛ إذِ الْآمالُ بَعدُ مُشرعة بوجهِ الرُّجوعِ، والأَمانيُّ في طَورِ الإمْكانِ، وثَمَّةَ رأيٌ لابنِ حَزمٍ في هذا المقامِ يَقولُ فيه: "وعاقبةُ كلِّ حبٍّ إلى أحد أمرين: إمَّا اخترامُ منيّة، وإمَّا سلوٌّ حادث."(٦٢)، وسَنرى أيَّ الأَمرَينِ قد تَجلَّى في واقعِ هذه التَّجرِبةِ، وهل اتفقَتْ مع أيٍّ منهُما، أم اختلفَتْ؟ مع أَنَّ الاتِّفاقَ نَتيجةٌ طَبيعيةٌ للتَّحوّلاتِ المَريرةِ التي شَهِدَتْها العَلاقةُ؛ لِأَنَّهَا قَدْ وُسِمَتْ بالهَجرِ الذي أَفضَى إلى اليَأسِ، و"السلوُّ المتولِّدُ من الهجر وطوله إنما هو كاليأس، يدخل على النفس من بُلوغها إلى أملها، فيَفْتُر نزاعها، ولا تقوى رغبتها."(٦٣) و(يفْتُر نزاعها) بمعنى: "يَضْعُف اشتياقُها"(٦٤).

هذهِ الافتتاحيةُ تُولِّدُ أَسئلةً، قِوامُها؛ هل وفَى بوعدِهِ الذي قطعَهُ لها؟ أَمْ جَرتْ عَليه أَحكامُ طُولِ المُدَّةِ فسلا؟ وقبلَ هذا وذاك، هل ضَعُفَ اشتياقُه لها حتَّى يسلوَ؟ كما قرَّرَ ذلكَ ابنُ حزم في عُموميَّةِ العَلاقاتِ العَاطفيَّةِ، وجوابُ هذه الأَسئلةِ يَكونُ بِمَا تَتَجلَّى هذهِ المَرحلةُ شِعرًا.

أ–الاشتياق:

و"الاشْتياق: نِزاعُ النفس إلى الشيء"(٦٥) ويرى ابن فارس أنَّ "الشين والواو والقاف أصلٌ واحد يدلُّ على تعلُّق الشّيء بالشيء ... ويقال شاقَنِي يَشُوقُني، وذلك لا يكون إلّاْ عن عَلَق حُبّ."(٦٦)

فالاشتياقُ نتيجةٌ لأَسبابٍ أوجدَتْهُ، والسَّببُ الرئيسُ هو التَّعلُّق، وهذا لا يكون إلَّا بالتَّماهي بين شَيئين، حتَّى يصيرا شيئًا واحدًا، إذْ لَا مفرَّ منه –أي الاشتياق– عند البُعد بينهما، لا سِيَّما في ميدانِ الحُبِّ.

وفِيهِ قَالَ ابنُ زيدون [من البسيط]:

"**إنّـي ذَكَرْتُـكِ، بِالزَّهْـراءِ**(٦٧)**، مُشْـتاقـا** ... **وَالأفـقُ طَـلقٌ وَمَـرْأى الأَرضِ قَـد رَاقَـا**

يَـوْمٌ، كـأيّـامِ لَـذّاتٍ لَـنـا انـصَرَمَـتْ، ... **بِتْـنـا لَـهـا، حيـنَ نـامَ الدّهـرُ، سُرّاقَـا**

نَلْهُو بمـا يَسْتَمـيلُ العَيـنَ مِـن زَهَـرٍ ... **جـالَ النّـدى فـيهِ، حتـى مـالَ أعنَـاقَـا**

كَـأنّ أَعْيُـنَـــهُ، إذْ عــايَـنَــتْ أرَقـي، ... **بَكَـتْ لِمـا بـي، فجـالَ الـدّمعُ رَقرَاقـا**

كُـلٌّ يَـهِـيـجُ لَـنَـا ذِكْـرى تَـشَـوّقِـنَـا ... **إلَيـكِ، لـم يَعْـدُ عَنهـا الصّـدرُ أن ضَاقَـا**

لا سَكّـنَ اللهُ قَـلْبـاً عَــقّ ذِكْـرَكُــمُ ... **فـلم يَطِـرْ، بِجَنـاحِ الشّـوْقِ، خفّاقَـا**

فَـالآنَ، أَحْمَـدَ مـا كـنّـا لِعَـهـدِكُـمُ، سَلَوْتُـمُ، وَبَقِينَـا نَحـنُ عُشّاقَـا"[٦٨]

تَحْمِلُ هذه الأبياتُ؛ الإجَابَةَ على الأَسئلةِ التي طُرِحَتْ، وكَفى بالمَطلعِ إجابَةً عَليها، ذَكَرَ (التَّذكُّر، والاشْتياق)، وهُوَ الجَوابُ؛ على أَنَّهُ (وفى، لم يسلُ، والاشتياق لم يخفت) بلِ الأَخيرُ قدِ اشْتَعَلَتْ جَذوتُه، في المَرحلَةِ التي كانَ يَجبُ أَنْ يَخفتَ فِيها، وبهذا فقد سَارَ بعكسِ الطَّبيعةِ التي عُرِفَ بها الهَجْرُ الطَويلُ، وهذا يَعني أَنَّ ابنَ زَيدون في تَجربتِهِ هذه؛ كان شُجاعًا، وفيًّا، وصادقًا في حُبِّهِ، لِلحَدِّ الذي جعلهُ مُغايرًا في رسم النهاية المعهودة للتَّجاربِ المشابهةِ لتَجربتِهِ.

وعَودًا إلى الأَبياتِ، نراهَا قد عجَّتْ بالاشتياقِ؛ لفَظًا ومعنىً، وهذا يَأخذُنَا إلى أَنَّ ثمَّةَ روابطَ متأصِلَةً بين الاشتياقِ والذِّكرياتِ، فالاشتياقُ يأتي من تذكُّرِ ماضٍ جميلٍ، هذا التَّذكُّرُ يكون جرَّاءَ قُوَّةٍ ضَاغطةٍ، إذْ لا قِبلَ للإنسانِ على رَدِّها، هذه القوة هي الذَّاكِرةُ، كما حدَّدَ موقعَها ابنُ سينا بقوله: هي "قوة مرتبة في التجويف المؤخر من الدماغ تحفظ ما تدركه القوة الوهمية من المعاني غير المحسوسة في المحسوسات الجزئية، ونسبة القوة الوهمية من المعاني غير المحسوسة في المحسوسات الجزئية، ونسبة القوة الحافظة إلى القوة الوهمية كنسبة القوة التي تسمى خيالا إلى الحس"[٦٩]، وعدمُ القُدرةِ على ردِّها عائدٌ إلى أُمُورٍ، منها؛ مكانُها، حيثُ المنطقة التي تُعرَفُ بهيمنتِها وحساسيَّتِها على الإنسانِ، وهي الدّماغ، أي أَنَّها قوةٌ حاكمةٌ، ومن ثَمَّ إذ بها تنسابُ بواقعِ قُدرتِها المُتَنفِّذةِ إلى منطقةٍ معنويَّةٍ، تُوازي حساسيَّةَ المنطقةِ المكانيَّةِ؛ هذه المنطقةُ المعنويَّةُ هي العاطفة، ولذا فالشَّاعِرُ عندَ رؤيتِه الأماكن الجميلة، تأتي الذَّاكرةُ بالقُدرةِ التي تَمتلكُهَا إلى استرجاعِ في الزَّمنِ؛ لما يُكْمِلُ جَمالَ الصُّورةِ، فيتحفَّز عندَه الخَيالُ، فَيسترجِعُ زَمانًا قد مثَّلَ له الحياةَ الجَميلةَ التي رسمَهَا؛ زمان الوصل، هذا التَّحفيزُ لم يَكتفِ بتخيّلِ حضورِ الماضي زمكانيًّا، بل يُلهِمُ المُبدعَ ويأمرُه بإخراجِ ما في جُعبتِه من إبداعٍ، وَتَجسَّدَ ذلكَ بكتابةِ هذهِ القَصيدةِ، لذا أَصبحَتْ هذه الذِّكرى دافعًا للكتابَةِ.

وثَمَّةَ مُعادلَةٌ ثُلاثيَّةُ الأَطرافِ (ذكرى، تذكّر، ذاكرة)؛ التَّذكرُ فيها فِعْلٌ، والذِّكرى موضوعٌ، والذَّاكرةُ أَداةُ استعمالٍ لها[٧٠] ذلكَ من قَولِ ريكور: "فينومينولوجيا الذكرى التي هي اللحظة الموضوعانية للذاكرة."[٧١]، والذَّاكِرةُ "هي المسؤولة عن تصميم وقائع حياتنا ورسم معالم وجود هذه الحياة"[٧٢]، أي أَنَّها لم تكتفِ باستحضارِ الماضي، بل هي أَداةٌ لصِناعةِ المُستقبلِ.

ب-الحَسرة:

ومنها التَّحسُّر أي "التَّلَهُّف"[٧٣] وتكونُ "على الشيء الفائت"[٧٤] و"الحَسْرَةُ: أشدّ الندم حتى يبقى النادم كالحَسِيرِ

من الدواب الذي لا منفعة فيه."[٧٥] فثمَّةَ مُعاناةٌ تخرج مع كل تنهيدةٍ، يقول في إحداها [من البسيط]:

"شَخصٌ، يُذَكّرُني، فاهُ وَغرّتَه، شَمسُ النّهارِ، وَأنفاسُ الرّياحينِ
لئنْ عَطِشتُ إلى ذاكَ الرّضَابِ لَكَمْ قَد باتَ مِنْهُ يُسَقّيني، فَيُرْويني
وَإنْ أفاضَ دُموعي نَوْحُ باكِيَةٍ، فَكَمْ أَرَاهُ يُغَنّيني، فَيُشجيني!
وَإنْ بَعُدْتُ، وَأضنَتني الهُمومُ، لقد عَهِدْتُهُ، وَهوَ يُدْنيني، فَيُسْليني"[٧٦]

يَبدأُ عَملُ الذَّاكرةُ؛ في هذه المَرحلةِ، وتَخرجُ تجلِّياتُها عِندَ كُلِّ كتابةٍ فيها؛ مُخْبرةً عن الحَياةِ التي عَاشَها الشَّاعِرُ في مَرحلةِ الذِّكرى، كتوثيقٍ لَها، ولَكَأَنَّهُ يَكتبُ سيرةَ المَرحلةِ شِعرًا، وتأثيرُها –أي الذاكرة– مُتغلْغِلٌ في أعماقِه، ولذلكَ تتجلَّى؛ في فِعلِها (التَّذكُّر) عِندَ الكِتابةِ، يرى طُلوعَ الشَّمسِ؛ فيتذكر جَمالَ وجهِهَا، ونصاعةَ أَسْنانِها، يَشُمُّ الرَّياحِينَ؛ فيتذكَّر عِطرَها وفمَها، فأَيُّ جَمالٍ يَراهُ لا يَكونُ جَميلًا، إلَّا بإِضَافتِها إلى المَشهدِ؛ حَتَّى يَكتملَ جَمالُ الصُّورةِ، هذه الذِّكرى؛ تُورِث الحَنينَ الذي يُسمَعُ نَشيجُهُ من الكَلماتِ نَدمًا؛ لأَنَّهُ ذَكَرَ فَتَحسَّرَ. تَذكُّرُ الفَمِ يَجعلهُ شائقًا إلى الارتِواءِ الذي كان يَجدهُ في رُضَابِها، فَتأتي الذَّاكِرةُ لِتُعزِّيهِ؛ مُذكرةً إيَّاه بالأَيَّامِ التي كانَ يُسقى مِنهُ حتى يَرتوي، لكنَّ التَّعزيةَ هُنا تَصيرُ مَصدرَ حَسرةٍ وأَلمٍ، فَتأخذُهُ الصُّورةُ المُشاهَدَةُ إلى صُورٍ أُخَر يتَخيَّلُهَا، فكأَنَّهُ يَسمعُ صَوتَ نَائحةٍ؛ تَجْعلُهُ يَبكِي، ولكنْ جَمالُ صَوتِهَا يَزيدُ من بُكائِهِ؛ لِتَذكُّرِهِ جَمالَ صَوتِ المَحبوبةِ عِندَ غِنائِهَا وكَم كانَ يُمثِّلُ طَربًا له، هذا التَّذكُّرُ صَارَ ثِقْلًا عَليه، فَأَرادَ أَنْ يَشكُوَ حالَهُ من الَّذي خلَّفَتْهُ الذِّكرياتُ؛ من تَعبٍ وعَذابٍ،

فإذا بالذَّاكرةِ تُحيلُهُ إلى أيَّامِهمَا، وكيف كانَتِ المَحبوبةُ تُنسيهِ الأَحزانَ، إذَا رأَتْهُ مُضْنىً، فتزدادُ الحَسراتُ!.

ج–التَّفجُّع والبُكاء:

الصُّورُ التي تُقلِّبُها الذَّاكرةُ، ما هِيَ إلَّا إخبارٌ لِصاحبِهَا؛ بذهابِ النَّعيمِ الذي كانَ فيهِ، وهذا الأَمرُ عصيُّ التَّقبُّلِ، فَيُؤدِّي به إلى التَّفجعِ، و"الفَجْع: أن يُفْجَعَ الإنسان بشيء يكرم عليه فيعدمه."[٧٧] أَيْ؛ ثَمَّةَ شَيءٌ وُجِدَ، فأُنِسَ به، ثم أُخِذَ، فالوقعُ حِينها عظيمٌ، وهذا يأخذُنَا إلى أَنَّ الأَمرَ ذُو مُفارقةٍ؛ بوُجُودِ ثُنائيَّةٍ ضِديَّةٍ، من قَبيلِ (الدنو والبعد، الفرح والحزن، الضحك والبكاء، إلخ...) والبُكاءُ مِنها؛ هُوَ النَّتيجَةُ الحتميَّةُ لِحَالَةِ التَّفجُّعِ، وهذا كُلّهُ يتجلَّى بقصيدتِه النُّونيَّةِ، التي لا يُمكنُ لِشَخصٍ يَدرسُ تَجرِبةَ الحُبِّ عِندَ ابنِ زيدون ويَغفلُ عنها، وهذا حُكْمٌ، فَهِيَ "التي شرقت وغربت

منذ أيام ابن زيدون نفسه وأصبحت تذكر كلما ذكر ابن زيدون"[٧٨]، ونَجِدُ فِيها كُلَّ المعاني التي تَقَدَّمَتْ من اشتياقٍ، وحَسرةٍ، وتمني، وغير ذلك، يَقولُ فِيها [من البسيط]:

"أضْحَى التّنائي بَديلاً مِنْ تَدانِينَا، وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيانَا تَجَافِينَا

ألّا! وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ، صَبّحنَا حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعِينَا

مَنْ مُبْلِغُ المُلْسِينا، بانتِزَاحِهِمُ، حُزْناً، مَعَ الدّهرِ لا يَبْلى ويُبْلِينَا

أنّ الزّمانَ الذي مازالَ يُضْحِكُنا، أنْساً بِقُرْبِهِمُ، قَدْ عادَ يُبكِينَا"[٧٩]

تَكثُرُ الثُّنائيَّاتُ الضِّديَّةُ في الأَبياتِ الأُولى؛ كَتجسِيدٍ لِحَالةِ التَّفجُّعِ التي يَعيشُهَا الشَّاعِرُ، فَالبيتُ الأَوَّلُ فِيها؛ يَكفي لكتابةِ تَعريفٍ، يُلخِّصُ فيه هذه التَّجربةَ، وهو أَيضًا؛ خُلاصةٌ لما كتبناه عن تأريخيَّةِ أحدَاثِهَا، إِذِ القُربُ أَضحَى بُعدًا، والوِصالُ صَارَ تَجافيًا، بَدأَ بهذا البَيتِ؛ لِيُخبرَ عن النِّهايَةِ الوَاقعيَّةِ التي كُتِبتْ لعَلاقتِهِمَا، وهذه النِّهايةُ أَنبأَتْ عن مَرحلةٍ جديدةٍ فيها يَتَبَدَّلُ الحَالُ؛ بِصُبحٍ جَديدٍ، ولكن كيف بدأتْ؟ بِصَوتِ النَّاعِي الذي يَتلو خَبرَ البُعدِ والفِراقِ. مُعلنًا به بداية الفَجيعةِ، ودخول النَّاعي في المَشهدِ؛ قد أَنتجَ رِسالةً بَعثَها الشَّاعرُ بيدِه –أي الناعي–؛ فعندما سَمِعَ صوتَه الشَّجيّ، وهُوَ يَرثي به اغتيالَ أَيام سعادته –أي ابن زيدون– حمَّلَهُ رِسالةً لها؛ أَنَّهَا أَلْبسَتْهُ لِباسَ الحُزنِ على نَفسِه –وهذا هو الموت المعنوي المذكور سابقا، والذي يُلبس الميتَ لباسَ الحزنِ على نفسه!– لِتَفجُّعِهِ على أَيَّامِه التي تبدَّلَت من الفَرحِ والسَّعادةِ إِلى الحُزنِ والبُكاءِ. ورغم هذا لم يجعلْها الفاعلَ الرَّئيسَ بعمليَّةِ الاغتيالِ، بل هي مُجرَّدُ وَسيلةٍ؛ بقولِه:

"غِيظَ العِدا مِنْ تَساقِينا الهَوى فدعَوْا بِأنْ نَغَصَّ، فَقالَ الدّهرُ آمِينَا

فَانحَلّ ما كانَ مَعقُوداً بِأنْفُسِنَا؛ وَانْبَتّ ما كانَ مَوْصُولاً بأيْدِينَا

وَقَدْ نَكُونُ، وَما يُخشَى تَفَرّقُنا، فاليَوْمَ نَحْنُ، وَما يُرْجى تَلاقِينَا

يا لَيتَ شِعرِي، ولم نُعتِبْ أعاديَكم، هَلْ نَالَ حَظّاً منَ العُتبَى أَعادِينَا"[٨٠]

جعلَها وسيلةً لتنفيذِ ما أَرادَتْهُ قوتانِ –الأعداء والدهر– عاتيتانِ، لا قِبَل للمَحبوبةِ على الوقوفِ بوجهِهمَا، وإذا

به يُبرِّئُ ساحتَها –مرةً أخرى– من الاغتيالِ المُتعمَّدِ، وعندها راحَ يُعدِّدُ الأُمورَ التي انعدمَتْ بعدَما وُجدَتْ؛ فانحلَّ المعقودُ، وانقطعَ الوِصالُ، وافترقَ اللِّقاءُ، وهذه مقدّماتٌ لسؤالِ العِتابِ للوسيلةِ، التي

نفذَّتْ مشروعَ الأَعادي –الوشاة سابقًا– بأَنَّهم هل رَضوا بالنَّتيجةِ المُتحققَةِ من ذلكَ؟ ونحنُ الذين مكثْنا دهرًا على إسخاطِهم بِوصَالِنا، بعدَما كُنتِ تَرينَهُم أَعداءً لكِ! بعدَ هذا العِتابِ ذي النَّبرةِ الغَاضِبةِ، يأتي بثُنائيَّةٍ متباينةٍ أُخرى، ولكنَّها ليسَتْ كسابقاتِها؛ لأَنَّها تُبيِّنُ جوهرَ كُلٍّ منهما –هو ومعذِّبته– يقولُ فِيها:

"لم نَعتقِدْ بَعدَكُمْ إلّا الوَفاء لكُمْ ... رَأياً، وَلَمْ نَتَقلّدْ غَيرَهُ دِينَا

ما حَقّنا أن تُقِرّوا عَينَ ذي حَسَدٍ ... بِنا، وَلا أن تَسُرّوا كاشِحاً فِينَا

كُنّا نَرى اليَأسَ تُسْلِينا عَوَارِضُه، ... وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لليأسِ يُغْرِينَا"[٨١]

يَكْمُنُ التَّباينُ في ماهيَّةِ كُلٍّ منهمَا، فهُوَ وإنْ حُكِمَ عَليه بالبُعدِ عن مَحبوبتِهِ، إلَّا أَنَّهُ تمسَّكَ بِحُبِّها، بلِ اتَّخذَهُ دِينًا، ولَمْ يعتقدْ بغيرِه؛ لِتوفُّرِ الأَدِلَّةِ القلبيَّةِ على صِحَّتِهِ، فيُعاتِبها مُتعجِّبًا؛ أَومَنْ يَفعل ذلكَ يُجازى بإقرارِ عَينِ الحَاسدِ، وإسعادِ العدو؟! لِأَنَّهُ يَعلمُ أَنَّ لها يَدًا فِي البعادِ، وهُنا يَكْمُنُ التَّباينُ، الذي جَعلَ اليَأسَ يأخذُه على حِين غِرَّةٍ، وقد كانَ يَظنُّ بِأَنَّ التَّجربَةَ هذه، لا تعرف اليَأسَ؛ فهنا تَظهرُ الشَّخصيتَانِ المُتصارعتَانِ؛ الواقعيَّةُ التي رأتِ الأحداثَ وقرأَتِ الوَاقِعَ، وخرجَتْ بِنتيجةٍ منطقيَّةٍ؛ أَنْ لا أَملَ بِعودةِ العَلاقةِ، فهي شخصيةٌ عاقِلةٌ، والثَّانيةُ كما أَطلَقْنَا عليها بالحَالِمَةِ، التي لا تَعنى بأَحداثِ الوَاقعَ، فَهِيَ غُيرُ قادرةٍ على قِراءةِ الأَحداثِ وتَحليلِها، أو هي لا تُريدُ ذلك؛ لأَنَّ ذَلكَ ليسَ من مَنهجِها، فهذا مُستنكرٌ عندها؛ لأنَّه يُمثِّلُ يقظتَها مِمَّا تَحلم، فَهِيَ شَخصيَّةٌ عاطفيَّةٌ. وبقي هذا التَّصارعُ مُلازمًا للشَّاعرِ؛ بين شخصيتَينِ تزيدَانِ من مَتَاعبِ هذه التَّجربةِ. فَخرجَ بأبياتٍ تَفيضُ بالدُّموعِ يقول:

"بِنْتُمْ وَبِنّا، فَما ابتَلّتْ جَوَانِحُنا ... شَوْقاً إلَيكُمْ، وَلا جَفّتْ مآقِينَا

نَكادُ، حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائرُنا، ... يَقضي علَينا الأسَى لَوْلا تأسّينَا

حَالَتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا، فَغَدَتْ ... سُوداً، وكانتْ بكُمْ بيضاً لَيالِينَا"[٨٢]

يُخاطِبُها خِطابَ المُنكَسِرِ، لِلفقدِ الَّذي حَدثَ، إِذِ الفَاجِعةِ تتجلَّى في هذهِ الأَبياتِ بأَعلى صورةٍ لَها، حاكيَةً الحال الذي هو فيه، فالبُعدُ الذي أَصبحَ حياةً لهُمَا، أَوْدَى إلى ثُنائيَّةٍ في الشُّعورِ والظُّهورِ، حَيثُ الجَوانحُ قد يَبِستْ؛ مُعلنةً نهايتها –أي موتها–، واخضرارُ الدُّموعِ؛ إيذانًا على بدايتِها، جرَّاءَ الشَّوقِ الَّذي ظهرَتْ مَلامحُهُ على الجَوانحِ والجَوارحِ؛ هنا يُخبرُ عن حالِهِ بعدَ الفَقدِ، كَتقريرٍ لهُ. ويَستدركُ في البَيتِ الَّذي تلاه؛ مُعلنًا ظُهور الشَّخصيَّةِ الحَالمةِ؛ بأَنَّ التَّأسِّيَ حائلٌ عن موتِه، من الحُزنِ حينَ يُناجِيها، وما هذا التَّأسي إلّا الأَملُ باللّقاءِ الَّذي بَقي مُلازمًا للشَّخصيَّةِ الحَالِمَةِ، ثمَّ

يَعودُ في البَيتِ الذي بعده، ليَصفَ أيَّامَهُ؛ مسترجعًا الشَّخصية الواقعيَّة، فيصفُ المُفارقةَ فيها بصورةٍ جَميلةٍ؛ فَغدَتِ الأَيَّامُ بعدها سودًا، إذ بها تفقدُ خاصِّيَّتَها؛ لأَنَّ من خاصيتها البياض حيثُ الشَّمسُ تُنيرها، بعدما كانت اللَّيالي بها –أي المحبوبة– بيضاء؛ كانسلاخٍ عن طبيعتها السوداء، وما ثُنائيةُ اللَّيلِ والنَّهارِ وما يحملانَهُ من لَونٍ، إلّا علامة يدلُّ بها على حُزنهِ الحالي، وفرحهِ السَّابق؛ الذي انقضى بانقضاءِ أيَّامِه معها.

الخاتمة:

تجلَّتْ تجربةُ الحبِّ بكُلِّ حيثيَّاتِها، ومراحِلها، من (وصلٍ، وهجرٍ، وذكرى)؛ في شِعرِ ابن زيدون، حتَّى غدَتْ أَبياتُه كأَنَّها سيرةٌ تُوثِّقَ هذه العَلاقةَ، الَّتِي كانَتْ عنيفةً في كُلِّ حالاتها، وهذا العُنف، كانَ سببًا رئيسًا فيما أَنتَجَهُ الشَّاعر؛ لأَنَّ فيه ارتجاجٌ لروحِه، وتأثيرٌ على ذاتِه. وحاولَ البحثُ الوقوفَ على كلِّ مرحلةٍ مرَّت بها التَّجربةُ، وأَنْ يقِفَ على مدى تأثير كلِّ واحدةٍ منها على بوصلةِ النَّظم، الَّذي كانَ مُتباينًا في أَغراضه، وهذا التَّباينُ لم يكُنْ لتباين المشاعر، فقد بقيتِ المشاعرُ ثابتةً، مع تبدّل الأَغراض، فالأَغراضُ هي تجلٍّ لمرحلةِ العَلاقةِ ظاهرًا، ووراء هذا الاختلاف في المعاني، كان ثمَّةَ قلبٌ لم يتغيَّر عن هوى محبوبتِه، وذلك ممَّا وقفَ عليه البحثُ من معانٍ شعريَّةٍ بترتيبها الزَّمني.

الهوامش

(١) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ط، ١٩٦٦: ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٠.

(٣) والدولة الجَهْوَرية في قرطبة من سنة ٤٢٢ – ٤٦١ هـ (١٠٣٠ – ١٠٦٨ م) قامت بعد أن زالت خلافة المعتضد وسقطت الدولة الأموية، وصار الأمر بقرطبة إلى الجماعة الأرستقراطيّين، وكان عميد هذه الجماعة أبو الحَزْم جَهْوَر، فاستولى على الأحكام، واستقلّ بالملك، فتوارثه أبناؤه من بعده. (أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت–لبنان، ط٦، ١٩٦٨: ٢٤.)

(٤) قلائد العِقيان ومحاسن الأعيان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عُبيد الله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان، حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط١، ١٩٨٩، ج١: ٢٠٩.

(٥) سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، ط١١، ١٩٩٦، ج١٨: ٢٤٠.

(٦) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، علي بن بسام الشنتريني، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، د.ط، ١٩٩٧، ق١، مج١: ٣٣٧–٣٣٨.

(٧) الصلة، ابن بشكوال، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ج٢: ٤٠٠–٤٠١.

(٨) توظيف الأمثال في الرسائل الأدبية– الرسالة الجدية لابن زيدون اختيارا، د. وليد مزهر، بحث، حولية المنتدى، العدد ٥٢، أيلول ٢٠٢٢: ٢٨٢.

(٩) ترتيب كتاب العين، الخليل بن احمد الفراهيدي، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، تصحيح: الأستاذ أسعد الطيب، مطبعة اسوة، ط٤، ١٤٣٥ هـ، ج١: ٣٠٩.

(١٠) لسان العرب، الإمام العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ج٢: ١٩٩.

(١١) المصدر نفسه: ج٢: ١٩٩.

(١٢) معجم التعريفات، العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ط، د.ت: ٤٦.

(١٣) سورة اللَّيل، الآية: ٢.

(١٤) تفسير القرآن الكريم، السيد عبد الله شبّر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠٠٩: ٧٦٣.

(١٥) نَمَطٌ صَعْبٌ، ونَمَطٌ مُخِيفٌ، محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط١، ١٩٦٩: ٣٠٠–٣٠١.

(١٦) تاريخ الأدب العربي، عمر فرُّوخ، دار العلم للملايين، ط٥، ٢٠٠٦، ج٤: ٥٩٠.

(١٧) يُنظر: ابن زيدون، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط١١، د.ت: ٣٥.

(١٨) في الحب والحب العذري، صادق جلال العظم، ترجمة: سعدي يوسف، دار المدى، ط٣، ٢٠١٤: ٢٧.

(١٩) طوق الحمامة في الإلف والأُلّاف، ابن حزم الأندلسي، تقديم: صلاح فضل، شرح وتعليق: آمال إبراهيم، إشراف: عبد العزيز نبوي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٢، ٢٠٢١: ٩٧.

(٢٠) مع الأَخذِ بِعينِ الاعتِبارِ أَنَّ صَاحِبَ هذهِ الأَوصَافِ ذُو نسقٍ دِينِيٍّ، ما إنِ انْدمجَ بوَصفِ الحُبِّ حتى استدرَكَ بِبُعدٍ دِينيٍّ، وهو الجَنَّةُ في الآخِرةِ، ومن هذا يُستنتَجُ بأَنَّ النَّعيمَ في دارِ الجَزاءِ، لَهُ رَديفٌ في الدُّنيا، وهو الوَصْلُ بينَ الحَبيبَينِ.

(٢١) النسيب: هو رقيق الشعر في النساء. (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤: ٤١٠.)

(٢٢) ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت: ٢٣.

(٢٣) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، د.ت: ٢٥٦.

(٢٤) جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ٢٠٠٨: ١٩٨.

(٢٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٠، ج٧٦٤:١.

(٢٦) الدِّيوان: ٦١.

(٢٧) ابن زيدون، علي عبد العظيم، دار الكتاب العربي للطبع والنشر، القاهرة، د.ط، ١٩٦٧: ١١٠.

(٢٨) بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضّبي، دار الكتاب العربي، د.ط، ١٩٦٧: ٥٤٧.

(٢٩) الذخيرة، ابن بسام، ق١، مج١: ٤٢٩.

(٣٠) ابن زيدون، علي عبد العظيم، سابق: ١٠٩.

(٣١) في الحب والحب العذري، صادق جلال العظم، سابق: ١٣.

(٣٢) المصدر نفسه: ١٤.

(٣٣) الدِّيوان: ٢٨.

(٣٤) طوق الحمامة، ابن حزم، سابق: ١٠٦.

(٣٥) المصدر نفسه: ١١٠.

(٣٦) الذخيرة، سابق، ق١، مج١: ٤٣١.

(٣٧) طوق الحمامة، سابق: ١١٣.

(٣٨) في الحب والحب العذري، صادق جلال العظم، سابق: ١٦.

(٣٩) مقاييس اللغة، ابن فارس، سابق، ج٣: ٢٠٧.

(٤٠) محاضرات الأدباء ومحاورة الشعراء والبلغاء، أبو القاسم حسين محمد الرَّاغب الأصفهاني، المكتبة الحيدرية، قم المقدسة، ط٢، ١٤٢٨ هـ، ج٣: ٦٣.

(٤١) الدِّيوان: ٧٧.

(٤٢) الدِّيوان: ٥٨.

(٤٣) ترتيب كتاب العين، الفراهيدي، سابق، ج٢: ١١٣١.

(٤٤) المعجم الوسيط، سابق: ٥٨١.

(٤٥) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٨: ١٤٥٣.

(٤٦) الدِّيوان: ٥٣.

(٤٧) الدِّيوان: ٥٩.

(٤٨) معجم اللغة العربية المعاصرة، سابق: ١٢٦.

(٤٩) جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني، تحقيق: علي سليمان شبارة، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق–سوريا، ط١، ٢٠١٠: ٦٩٤.

(٥٠) الدِّيوان: ٦٦.

(٥١) الدِّيوان: ٥٠.

(٥٢) المعجم الوسيط، سابق: ٩٧٥.

(٥٣) الدِّيوان: ٥٠.

(٥٤) ترتيب كتاب العين، سابق، ج١: ١٧١.

(٥٥) المعجم الوسيط، سابق: ٦٠٨.

(٥٦) الدِّيوان: ٢٨٤.

(٥٧) معجم مقاييس اللغة، سابق، ج٤: ١٢٨.

(٥٨) سورة البقرة، الآية: ٦١.

(٥٩) كما يذهبُ أَغلبُ شرَّاحِه مثل (ديوان ابن زيدون، شرح: الدكتور يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤: ١٤٥.)

(٦٠) لسان العرب، سابق، ج٣: ٣٨٥.

(٦١) الدِّيوان: ٢٧. (كما تَشاءُ، فقُلْ لي، لستُ مُنتَقِلاً لا تَخشَ منيّ نِسياناً، وَلا بَدَلا)

(٦٢) طوق الحمامة، سابق: ١٥٦.

(٦٣) المصدر نفسه: ١٥٦.

(٦٤) المكان نفسه؛ (في الهامش): ١٥٦.

(٦٥) لسان العرب، سابق، ج٥: ١٦٩.

(٦٦) معجم مقاييس اللغة، سابق، ج٣: ٢٢٩.

(٦٧) الزهراء: هي المدينة الشهيرة بما فيها من بدائع الفن وجمال المنازه؛ بناها عبد الرحمن الناصر أحد الملوك الأمويين في الأندلس، وسماها باسم حظيته الزهراء. (الدِّيوان، الهامش: ٢٢.)

(٦٨) الدِّيوان: ٤٦.

(٦٩) الشفاء، النفس، ابن سينا، تصدير ومراجعة: إبراهيم مدكور، تحقيق: أحمد الأهواني، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط.ت، ١٩٥٨: ٣٧.

(٧٠) يُنظر: تحرير البلاغة، بحث في الذاكرة، د. صلاح حاوي، دار شهريار، البصرة– العراق، ط١، ٢٠٢١: ١٤.

(٧١) الذاكرة، التاريخ، النسيان، بول ريكور، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٩: ٣٢.

(٧٢) تحرير البلاغة، بحث في الذاكرة، د. صلاح حاوي، سابق: ١٥.

(٧٣) لسان العرب، سابق، ج٢: ٣٨٥.

(٧٤) معجم مقاييس اللغة، سابق، ج٢: ٦٢.

(٧٥) لسان العرب، سابق، ج٢: ٣٨٦.

(٧٦) الدِّيوان: ٢٦.

(٧٧) ترتيب كتاب العين، سابق، ج٣: ١٣٧٣.

(٧٨) ليس في شعر ابن زيدون، الدكتور ناصر الدين الأسد، مقال، الثقافة . مدحت عكاشة، العدد ١٢، ١ ديسمبر، ١٩٧٥: ٥٣.

(٧٩) الدِّيوان: ٩.

(٨٠) الدِّيوان: ٩.

(٨١) الدِّيوان: ١٠.

(٨٢) الدِّيوان: ١٠.

قائمة المصادر والمراجع:

١.القرآن الكريم.
٢.ابن زيدون، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط١١، د.ت.
٣.ابن زيدون، علي عبد العظيم، دار الكتاب العربي للطبع والنشر، القاهرة، د.ط، ١٩٦٧.
٤.أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت–لبنان، ط٦، ١٩٦٨.
٥.بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضّبي، دار الكتاب العربي، د.ط، ١٩٦٧.
٦.تاريخ الأدب العربي، عمر فرُوخ، دار العلم للملايين، ط٥، ٢٠٠٦.
٧.تحرير البلاغة، بحث في الذاكرة، د. صلاح حاوي، دار شهريار، البصرة– العراق، ط١، ٢٠٢١.
٨.ترتيب كتاب العين، الخليل بن احمد الفراهيدي، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، تصحيح: الأستاذ أسعد الطيب، مطبعة اسوة، ط٤، ١٤٣٥ هـ.
٩.تفسير القرآن الكريم، السيد عبد الله شبّر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠٠٩.
١٠.توظيف الأمثال في الرسائل الأدبية– الرسالة الجدية لابن زيدون اختيارا، د. وليد مزهر، بحث، حولية المنتدى، العدد ٥٢، أيلول ٢٠٢٢.
١١.جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني، تحقيق: علي سليمان شبارة، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق–سوريا، ط١، ٢٠١٠.
١٢.جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ط، ١٩٦٦.
١٣.جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
١٤.ديوان ابن زيدون، شرح: الدكتور يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤.
١٥.ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.
١٦.الذاكرة، التاريخ، النسيان، بول ريكور، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٩.
١٧.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، علي بن بسام الشنتريني، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، د.ط، ١٩٩٧.
١٨.سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، ط١١، ١٩٩٦.
١٩.الشفاء، النفس، ابن سينا، تصدير ومراجعة: إبراهيم مدكور، تحقيق: أحمد الأهواني، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط.ت، ١٩٥٨.

٢٠.الصلة، ابن بشكوال، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٩.
٢١.طوق الحمامة في الإلف والأُلّاف، ابن حزم الأندلسي، تقديم: صلاح فضل، شرح وتعليق: آمال إبراهيم، إشراف: عبد العزيز نبوي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٢، ٢٠٢١.
٢٢.في الحب والحب العذري، صادق جلال العظم، ترجمة: سعدي يوسف، دار المدى، ط٣، ٢٠١٤.
٢٣.قلائد العِقيان ومحاسن الأعيان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عُبيد الله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان، حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط١، ١٩٨٩.
٢٤.لسان العرب، الإمام العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.
٢٥.ليس في شعر ابن زيدون، الدكتور ناصر الدين الأسد، مقال، الثقافة . مدحت عكاشة، العدد ١٢، ١ ديسمبر، ١٩٧٥.
٢٦.محاضرات الأدباء ومحاورة الشعراء والبلغاء، أبو القاسم حسين محمد الرَّاغب الأصفهاني، المكتبة الحيدرية، قم المقدسة، ط٢، ١٤٢٨ هـ.
٢٧.معجم التعريفات، العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ط، د.ت.
٢٨.معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٨.
٢٩.معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.
٣٠.معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، د.ت.
٣١.المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٠.
٣٢.نَمَطٌ صَعْبٌ، ونَمَطٌ مُخِيفٌ، محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط١، ١٩٦٩.

References

1. The Holy Qur'an.
2. Shouqi Daif. Ibn Zaydun. Dar Al-Maaref, 11th ed., n.d.
3. Ali Abdul Azim. Ibn Zaydun. Dar Al-Kitab Al-Arabi, Cairo, 1967.
4. Butros Al-Bustani. Arab Writers in Andalusia and the Age of Renaissance. Dar Al-Makshouf & Dar Al-Thaqafa, Beirut, 6th ed., 1968.
5. Ahmad ibn Yahya ibn Umairah Al-Dhabbi. Bughiyat al-Multamis fi Tarikh Rijal al-Andalus. Dar Al-Kitab Al-Arabi, 1967.
6. Omar Farrukh. History of Arabic Literature. Dar Al-Ilm Lil-Malayin, 5th ed., 2006.
7. Salah Hawi. Liberating Rhetoric: A Study on Memory. Dar Shahriar, Basra-Iraq, 1st ed., 2021. 8. Al-Khalil ibn Ahmad Al-Farahidi. Tarteeb Kitab Al-Ayn, edited by

Mahdi Al-Makhzoumi & Ibrahim Al-Samarrai, reviewed by Asaad Al-Tayyib, Eswa Press, 4th ed., 1435 AH.
9. Abdullah Shubr. Tafsir al-Qur'an al-Karim. Al-A'lami Publishing, Beirut, 1st ed., 2009.
10. Walid Mazhar. The Use of Proverbs in Literary Letters: A Study of Ibn Zaydun's "Serious Letter", Forum Annals, Issue 52, Sep. 2022.
11. Mustafa Al-Ghalayini. Jami' al-Duroos al-Arabiya, ed. Ali Suleiman Shubara, Al-Risala Publishers, Damascus, 1st ed., 2010.
12. Ibn Al-Fattouh Al-Azdi. Jadhwat al-Muqtabis fi Dhikr Wulat al-Andalus. Egyptian House for Authorship & Translation, 1966.
13. Ahmed Al-Hashimi. Jawahir Al-Balagha (Rhetorical Gems). Al-A'lami Publishing, Beirut, 1st ed., 2008.
14. Diwan Ibn Zaydun, edited by Karam Al-Bustani, Dar Sader, Beirut, n.d.
15. Diwan Ibn Zaydun, explained by Dr. Youssef Farhat, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, 2nd ed., 1994.
16. Paul Ricœur. Memory, History, Forgetting, translated and annotated by George Zinati, Dar Al-Kitab Al-Jadeed Al-Muttahida, 1st ed., 2009.
17. Ali ibn Bassam Al-Shantarini. Al-Dhakhira fi Mahasin Ahl Al-Jazira, ed. Ihsan Abbas, Dar Al-Thaqafa, Beirut, 1997.
18. Al-Dhahabi. Siyar A'lam Al-Nubala', ed. Shu'ayb Al-Arna'oot and Muhammad Naeem Al-'Arqousi, Al-Risala Foundation, 11th ed., 1996.
19. Ibn Sina. Healing the Soul (Al-Shifa' – Al-Nafs), reviewed by Ibrahim Madkour, ed. Ahmad Al-Ahwani, Amiriya Press, Cairo, 1958.
20. Ibn Bashkuwal. Al-Silah, ed. Ibrahim Al-Abyari, Dar Al-Kitab Al-Masri (Cairo) and Dar Al-Kitab Al-Lubnani (Beirut), 1st ed., 1989.
21. Ibn Hazm Al-Andalusi. The Ring of the Dove (Tawq al-Hamamah), intro. Salah Fadl, commentary by Amal Ibrahim, supervised by Abdul Aziz Nabawi, Egyptian Lebanese House, Cairo, 2nd ed., 2021.
22. Sadiq Jalal Al-Azm. On Love and Chaste Love, translated by Saadi Youssef, Dar Al-Mada, 3rd ed., 2014.
23. Ibn Khakan Al-Ishbili. Qala'id al-Iqyan wa Mahasin al-A'yan, ed. Dr. Hussein Yusuf Khurayyish, Al-Manar Library, 1st ed., 1989.
24. Ibn Manzur. Lisan Al-Arab. Dar Sader, Beirut, n.d.
25. Nasser Al-Din Al-Asad. What is Not in the Poetry of Ibn Zaydun, article in Al-Thaqafa, ed. Medhat Okasha, Issue 12, Dec. 1, 1975.
26. Al-Raghib Al-Isfahani. Lectures of Literati and Dialogues of Poets and Orators, Al-Haydariyah Library, Qom, 2nd ed., 1428 AH.
27. Al-Sharif Al-Jurjani. Dictionary of Definitions, ed. Mohamed Sadiq Al-Menshawi, Dar Al-Fadhila, Cairo, n.d.
28. Ahmed Mukhtar Omar. Contemporary Arabic Language Dictionary, Alam Al-Kutub, Cairo, 1st ed., 2008.
29. Majdi Wahba & Kamel Al-Muhandes. Dictionary of Arabic Terminology in Language and Literature, Lebanon Library, Beirut, 2nd ed., 1984.

30. Ibn Faris. Mu'jam Maqayis Al-Lugha, ed. Abdul Salam Muhammad Harun, Dar Al-Fikr, n.d.
31. Al-Mu'jam Al-Waseet (The Intermediate Dictionary), Arabic Language Academy, Shorouk International Library, Egypt, 4th ed., 2000.
32. Mahmoud Muhammad Shaker. A Difficult Pattern, A Terrifying Pattern, Dar Al-Madani, Jeddah, 1st ed., 1969.